من اللطائف والإشارات في فواصل الآيات

"دراسة تطبيقية على فواصل سورة المزمل"

إعداد الدكتور

محمد مسعود محمد عُلواني

مدرس القراءات

في كلية القرآن الكريم بطنطا

من اللطائف والإشارات في فواصل الآيات
(دراسةٌ تطبيقيةٌ على فواصل سورة المزمل)

محمد مسعود محمد عُلْواني
قسم القراءات، كلية القرآن الكريم للقراءات وعلومها بطنطا، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: MohamadOlwany٢٤٦٨.el@azhar.edu.eg

الملخص:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وعلى آله وصحبه ومَن والاه، وبعدُ،،،

فإن الله تعالى قد اختار ألفاظ كتابه اختياراً حيَّرَ أرباب الفصاحة والبيان، فما من لفظة فيه، إلا ولها دلالة ومعنى، وقد حاولت في هذا البحث دراسة ظاهرة من أهم ظواهر القرآن الكريم، وهي الفاصلة القرآنية، وكان الهدف من تلك الدراسة: إبراز المعاني والإشارات والأسرار في فواصل سورة المزمل، وربطها باللغة العربية صوتياً ودلالياً وبناءً وتركيباً، وفي ذلك إبراز لجانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم. ثم الإسهام في دراسة ومعالجة ظاهرة من أهم ظواهر القرآن الكريم، وهي الفاصلة، والتي تُعدُّ من أبرز معالم الآية حتى أطلق عليها "رأس الآية"، وفي ذلك إظهار لعظمة القرآن الكريم. ثم استكمالاً لما بدأه الأقدمون من بيان أسرار الفواصل القرآنية. وأخيراً: جمْعُ هذه اللطائف والإشارات والأسرار لفواصل تلك السورة في كتاب مستقل؛ لأنها غير مجموعة في كتاب، وإن كان كثيرٌ منها متناثراً في بطون الكتب.

وقد اتبعت في ذلك المنهجين الاستقرائيَّ، والتحليليّ. وتوصّلت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج، أهمها:

– أن لصوت الحرف وصفاته دلالة مقصودة في الفواصل القرآنية، مثال: اللام في ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، والميم في ﴿جَحِيمًا﴾، ﴿أَلِيمًا﴾.

– الفواصل القرآنية إما متماثلة وإما متقاربة، وفواصل سورة المزمل من القسم الثاني.

- جاءت أغلب فواصل هذه السورة على صيغة "فعيل"، لكن حدث تحوّل من هذه الصيغة إلى صيغة "فعول" في فاصلة واحدة، وإلى صيغة "فِعْل" في فاصلتين، وإلى صيغة "تفعيل" في فاصلتين أيضا، وإلى صيغة "مفعول" في فاصلة واحدة.
- نسبة الصيغ الأساسية في فواصل السورة (أي ما جاء على "فعيل") ٥٠%، ونسبة الصيغ التي تم التحوّل إليها لغرض وسرّ ٢٠%، وهذا على الأعداد الكوفية والمدني الأول والشامي، والبصري، والمكيّ في الصحيح عنه.

أما على عدّ المدني الأخير، فنسبة الصيغ الأساسية في فواصل السورة ٧٢,٢٢%، ونسبة الصيغ التي تم التحوّل إليها لغرض وسرّ ١٦,٦٦%. والله الموفق.

الكلماتُ المِفتاحيــة: فواصل – المزمل – أسرار – لطائف– إشارة.

Scientific signals in the separating final phrase (Faselah) (Applied study on the separating final phrase of Surah Al-muzamel).

By: Muhammad Masoud Muhammad Olwany

Department of Readings, Faculty of the Holy Quran, for Readings and Sciences of Tanta, At Al-Azhar University-Egypt.

Email: MohamadOlwany٢٤٦٨.el@azhar.edu.eg

Abstract:

All praise is due to Allah, We worship Him, We seek His help and His forgiveness, and we turn to Him in repentance. We seek refuge in Allah from the evil within ourselves and from our ill deeds. Whoever is guided by Allah cannot be led astray, and whoever goes astray cannot be guided. I testify there is no God but Allah and no partner has He. And I bear witness that Muhammad, is His slave and messenger.

Allah Almighty has chosen the words of His Book, which have puzzled the scholars of eloquence and rhetoric. Therefore, every word in the Qur'an has a specific connotation and meaning. In this research, I have tried to study one of the most important phenomena of the Holy Qur'an, which is the separating final phrase (Faselah). The aim of this study is to highlight the meanings, connotations, and secrets in Surat Al-muzamel, and to connect them to the Arabic language phonetically, semantically, and structurally. This highlights an aspect of the miracle of the Noble Qur'an. Then to contribute to the study of one of the most important phenomena of the Holy Qur'an, which is the separating final phrase (Faselah), which is one of the most prominent features of the verse until it was called "the head of the verse", and to complement what the early scholars started to explain the secrets of the separating final phrase (Faselah) in the Holy Qur'an. Finally, to compile

these subtle signals, and secrets of this surah in a separate book; Because they are not collected in one book, although many of them are scattered in the books.

This research has followed the inductive and analytical approaches. This study reached a number of results, the most important of which are:

- The sound of the letter and its qualities and characteristics have an intended meaning in the separating final phrase (Faselah) in the Holy Qur'an, for example: Laam in (Al-Muzammil), and Mim in (hell).
- The separating final phrase (Faselah) in the Holy Qur'an are divided into two parts, similar and convergent; and the separating final phrase (Faselah) in Surat Al-Muzammil is convergent.
- Most of the separating final phrase in this surah came in the form of " "do", but there was a change from this form to "verb" in one verse, to the form of "Act" in two verses, to the form of "activation" in two verses as well, and to the form of "effect" in one verse.
- The percentage of the basic forms in separating final phrase in this surah (i.e. what was mentioned on "فعيل") is ٥٠٪, and the percentage of the forms that have been converted for purpose and secret is ٢٠٪, and this is based on the numbers of Kufic, first Meddini verses, Shami, Basri, and Mecci.
- As for the last Meddini verses, the percentage of basic forms in this surah is ٧٢.٢٢٪, and the percentage of forms that have been converted for a purpose and a secret is ١٦.٦٦٪.

Keywords: separating final phrase (Faselah) - Muzammil - Secrets - Scientific signals.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول اللهﷺ، وعلى آله وصحبه ومَن والاه، وبعد.

فإنّ العلومَ وإن اختلفت أصولها، وتباينت مشاربها؛ فإن أعظمَها شأناً، وأرفعَها مكانةً، ما اتصل بالقرآن العظيم، ولا شك أنّ علمَ الفواصل القرآنية من أكثر العلوم التصاقاً وتعلقاً بكتاب الله تعالى؛ فهو علمٌ شريف، ومَطلب منيف، وإن شرف العلم من شرف المعلوم.

والفاصلةُ ظاهرةٌ أسلوبيةٌ قرآنيةٌ فريدةٌ واضحةُ المعالم، وهي مما انفرد به القرآن عن النثر والشعر معاً، وتعد من أبرز الخصائص التي جعلته نحواً جديداً من أنحاء البيان، وطريقاً فريداً من طرق التعبير.

ولما كان يقيني أن الله تعالى اختار ألفاظ كتابه اختياراً حيَّرَ أرباب الفصاحة والبيان، فجاء كل حرف وكل لفظة فيه، متمكنةً في مكانها، مستقرةً في قرارها، مطمئنةً في موضعها، غير نافرةٍ ولا قَلِقَةٍ، متعلقاً معناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً، بحيث لو طُرحت أو غُيِّرتْ لاضطرب الفهم واختل المعنى[(١)]، أردت أن أخوض غمار الغوص في محيط هذا العلم بحثاً عن لآلئ هذه الفواصل، وكان ذلك من خلال هذا البحث والذي عنونته بـ:

«من اللطائف والإشارات في فواصل الآيات، دراسةٌ تطبيقيةٌ على فواصل سورة المزمل».

وكان من الأسباب التي دعتني إلى الكتابة في هذا الموضوع- إضافة إلى ما تقدم- ما يأتي:

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (١٨٠٥/٥) بتصرف. بل إن الحركات في القرآن لها نفس منزلة الألفاظ من الفصاحة والبلاغة. ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٥٦).

١ – إبراز جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم بتسليط الضوء على فواصل الآيات تحديداً.

٢– الإسهام في دراسة ومعالجة ظاهرة من أهم ظواهر القرآن الكريم، وهي الفاصلة، والتي تُعدُّ من أبرز معالم الآية حتى أطلق عليها "رأس الآية"، وفي ذلك إظهار لعظمة القرآن الكريم.

٣ – استكمال ما بدأه الأقدمون من بيان أسرار الفواصل القرآنية.

٤ – جِدَّةُ الموضوع، فحسْب علمي لم أعثر على مَن جَمَع هذه المادة في كتاب مستقل، وإن كان كثيرٌ منها متناثراً في بطون الكتب.

الدراسات السابقة

سبقني إلى الكتابة في هذا الموضوع عدد من السادة الأساتذة والباحثين، لكن كل ما كُتب إما بعيد عن سورة المزمل، وإما معالجته تختلف عن المعالجة التي سلكتها في هذا البحث اختلافاً كليا أو جزئيا، ورسالةٌ واحدة فقط تناولتْ أربع آيات مما تناولتُ من سورة المزمل بشكل قريب مما ذكرته، وهي رسالة د. محمود السيد منصور، كما سيأتي؛ لذلك أحسبُ أن هذا البحث جاء فأضاف لَبِنةً إلى ما كتب السابقون.

وهذه الدراسات التي سُبِقتُ بها، وهي تتصل أو تقترب من موضوع هذا البحث منها ما هو دراسات عامة، ليست تحليلية لجميع الفواصل القرآنية، ويمثله المؤلفات الآتية:

١–الفاصلة في القرآن، د. محمد الحسناوي.

٢–الفاصلة القرآنية: للدكتور عبد الفتاح لاشين.

٣–فواصل الآيات القرآنية دراسة بلاغية دلالية، د. السيد خضر.

٤– دراسات بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، د. عبد الجواد طبق.

٥–الفاصلة القرآنية شكلا وبلاغة، عمار بدوي.

ومنها ما هو بلاغي خاص بالسياق وعلاقة الفاصلة به، ويمثله المؤلفات الآتية:

١ – مجموعة من رسائل التخصص (الماجستير) بالجامعة الإسلامية: غزة– كلية أصول الدين– قسم التفسير وعلوم القرآن، وعددها ٢٥ رسالة، ولكن هذه الرسائل تفتقد إلى التعميم، فلم تطبق الدراسة على جميع ما جاء في الفاصلة من ظواهر بلاغية أو أغراض، بل اكتفت البحوث بأمثلة من كل نوع، مما لا يتفق مع منهج البحث.

٢– الفواصل القرآنية: مفهومها وأنماطها وأسرارها البلاغية د/محروس بريك.

٣–الفاصلة القرآنية وجماليتها في سورتي طه والرحمن، بن يمينة جميلة.

٤–أوجة بلاغية الفواصل القرآنية: قراءة في آيات العقيدة، د. عبد الله علمي.

٥– بلاغة الفاصلة في سورة القصص، دراسة تحليلية، فوزية بنت مسفر.

وهناك عدد من البحوث حاول أصحابها ربط الفاصلة باللغة بناء وتركيبا ودلالة، وهي:

١– ظواهر علم اللغة في فواصل القرآن الكريم، د. عبد المنعم عبدالله حسن.

٢–التوافق المقطعي في فواصل بعض سور القرآن الكريم وقراءته المتواترة دراسة في التأسيس والتطبيق، بحث منشور في العدد ٢٧ من حولية كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، سنة ٢٠١٤م.

٣– المختلف فيه من الفواصل عند علماء العدد في ضوء الدرس اللغوي الحديث في إطار التنزيل المكي، د. محمود السيد منصور.

٤–الفواصل القرآنية دراسة صوتية في ضوء معطيات علم اللغة الحديث، د/أحمد عبد الرحمن.

٥– الأسلوبية الصوتية في الفواصل القرآنية، د. عمر عبد الهادي عتيق.

٦– الظواهر النحوية في فواصل القرآن الكريم، د. عائشة الأنصاري.

٧–الفاصلة القرآنية دراسة في ضوء علم اللغة النصي، د. محمود سليمان الجعيدي.

٨–إيقاع الفواصل المنفردة دراسة دلالية في القرآن الكريم، د. محروس بريك.

٩– تأملات في الوقف علي رؤوس الآيات، د. نصر سعيد عبد المقصود.

١٠- الفواصل وصلتها بالقراءات القرآنية وعلومها، د. بشير أحمد دعبس.

١١- ست مقالات منشورة في مجلة الوعي الكويتية للدكتور على محمد حسن، بتعريف الفواصل، ومشكلاتها، وبعض أسرارها.

وكل ما تقدم من أبحاث وكتب لا يتطابق أيّ منها مع ما كتبتُ في هذا البحث لا تطابقاً تاما ولا شبه تام.

منهج البحث

اعتمدتُّ في هذا البحث على:

١- المنهج الاستقرائيّ، حيث تتبعتُ جُلَّ ما كَتبَ اللغويون والمفسرون والبلاغيون حول فواصل السورة الكريمة محل الدراسة.

٢- المنهج التحليليّ، حيث قمت بتحليل النصوص التي اطلعتُ عليها في أثناء جمع المادة العلمية للكلمات والمفردات محل الدراسة، محاولا استنباطَ الإشارات والأسرارِ واللطائف منها.

هدف البحث

يهدف البحث إلى إبراز المعاني والإشارات والأسرار في فواصل سورة المزمل، وربطها باللغة العربية صوتياً ودلالة وبناءً وتركيباً.

خطة البحث

اقتضت طبيعة هذا العمل أن يتكوّن من مقدِّمة وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

أما المقدمة: فتحدّثتُ فيها عن أهمية الموضوع، وأسباب الكتابة فيه، والدراسات السابقة، وهدف البحث ومنهجه، وخطته، ثم الإجراءات المتبعة في معالجته.

وأما التمهيد: فجعلته لبيان مفهوم «الفاصلة»، والفرق بينها وبين «السجع»، ثم ذكرتُ عدد آيات السورة، ومقصودها، والقراءات المتواترة التي وردت فيها تحت عنوان "بين يدي السورة".

ثم كان المبحث الأول، والذي هو بعنوان: « لطائف وأسرار فواصل آيات مطلع السورة»، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: فواصل آيات الأمر بقيام الليل، (وفيه الآيات من ١- ٤).

المطلب الثاني: فواصل الآيات التي تعالج آثار الوحي، وتحمِلُ النبيَّ ﷺ على ملازمة عبادة الله في الليل والنهار، (وفيه الآيات من ٥- ٧).

المطلب الثالث: فواصل آيات الأمر بالذكر والصبر، (وفيه الآيات من ٨- ١٠).

وأما المبحث الثاني فَعَنْوَنتُ له بـ: «لطائف وأسرار فواصل آيات التهديد والوعيد للمكذّبين، وتخفيف القيام عن النبيﷺ والمؤمنين »، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: فواصل آيات التهديد بالنار وما فيها، (وفيه الآيات من ١١- ١٤).

المطلب الثاني: فواصل آيات التهديد بذكر خبر فرعون وما حلّ به (وفيه الآيتان: ١٥، ١٦).

المطلب الثالث: فواصل آيات مشاهد يوم القيامة، (وفيه الآيات من ١٧- ١٩).

المطلب الرابع: لطائف وأسرار فاصلة آية تخفيف الله على عباده في قيام الليل. وفيه آية واحدة، هي الآية الأخيرة من سورة المزمل.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي تمخّض عنها هذا البحث، وكشاف للمصادر، وآخر للموضوعات.

إجراءاتي في عرض الموضوع

سِرْتُ في عرض ومناقشة هذا الموضوع على خطوات محدّدة تتلخّص معالمها في النقاط الآتية:

١ - التزمتُ كتابة الآيات القرآنية- محل الدراسة- بالرسم العثمانيّ وفق رواية حفص، وعزوتها إلى سورها، ووضعتها بين قوسين هلاليين، وأرقامها بجانبها بين معكوفتين.

٢ - ضبطتُ بالشكل الألفاظ التي قد تلتبس على القارئ.

٣ - وثَّقتُ جميع القراءات والنُّقول التي ذكرتها من مظانها.

٤- خرّجت الأحاديث النبوية الشريفة، وحكمت عليها من خلال كلام العلماء، وإذا كان الحديث في أحد الصحيحين اكتفيت بالنسبة إليه فقط.

٥ - أثبتُّ علامات الترقيم وفق القواعد التي قرّرها علماء هذا الشأن.

٦-اقتصرت على ما يتعلق بكلمة الفاصلة، ويبين أسرارها ولطائفها، إلا إذا دعت الضرورة إلى غير ذلك.

٧ - بيَّنتُ في الحاشية المراد من بعض الكلمات والجُمَل الغامضة التي ترِدُ في النقل عن بعض العلماء، وعلَّقت على ما يستوجب التعليق.

٨ - التزمتُ ذكرَ اسم المصدر دون مؤلِّفه، إلا عند التشابه[(١)]، فأذكرُ المصدر مشفوعاً بصاحبه؛ للتمييز.

٩ - أخَّرتُ ذِكْرَ بيانات الكتب والمصادر التي رجعت إليها إلى كشاف المصادر العلمية؛ تلاشياً لإثقال الحواشي.

وفى ختام هذه المقدمة: أحمدُ الله تعالى على ما مَنَّ به علىّ من نعم لا تُعدُّ ولا تحصى، وأسأله ﷻ أن يلهمني الصواب في القول والعمل، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به بعد أن أُوَارَى تحت التراب، وأن يُوقِعَه في قلوب قارئيه وسامعيه موقعاً حسناً، وألا يحرمنا الأجر، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، إنه سميع مجيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) مثل: "جامع البيان" للطبري، والداني، والإيجيّ، و"معاني القرآن" للفراء، والأخفش، والنحاس، وكذا الزجاج، ونحو ذلك، فعندئذٍ يجب التمييز.

التمهيد

وفيه: بيان مفهوم «الفاصلة»، «عدّ الآي»، والفرق بينهما وبين «السجع»، وعدد آيات السورة، ومقصودها، والقراءات المتواترة الواردة فيها.

❁ الفاصلة لغة

مادة فصل كلمة صحيحة تدل على تمييز الشيء من الشيء وإبانته عنه، والفصيل: ولد الناقة إذا افُتصل عن أمه؛ والمفصل: اللسان؛ لأن به تفصل الأمور وتميز.

والفاصلة: خرزة خَاصَّة تفصل بَين الخرزتين فِي العِقْد وَنَحْوه، والعلامة فِي حِسَاب الكسور العشرية تكْتب بَين الْكسر وَالْعدَد[(١)].

مما تقدم يتبين: أن الفصل يدل على تمييز شيء عن شيء، وأن الفصل فيه إبانة، وأنه يكون في الماديات والمعنويات.

❁ الفاصلة اصطلاحًا

عرفها الزجاج بأنها: أواخر الآيات في كتاب الله[(٢)]. وعرفها الزركشي بأنها: كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع[(٣)].

❁ الفرق بين الفاصلة والسجع

سبق تعريف الفاصلة، أما السجع فهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد[(٤)]. أي هو الكلام المقفَّى، أو موالاة الكلام على روي واحد.

والفرق بينه وبين الفاصلة يظهر من خلال ما يلي:

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (فَصَلَ) (٤/ ٥٠٥)، المعجم الوسيط (٢/ ٦٩١).

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٢١٨).

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٥٣). وحدد بعضهم الفاصلة في الكلمة الأخيرة من الفِقرة، ورأى البعضُ أن الفاصلة تشمل الجملة الختامية كلها، ولها تعريفات أخرى يرجع إليها في المصدر السابق.

(٤) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني (ص: ٣٦٢).

١- أن الفاصلة تامة المعنى، ويستحيل أن يكون فيها إخلال بالمعنى، والسجع على خلاف ذلك، فكثيرًا ما يأتي السجع مخلا بالمعنى.

٢- أن الفاصلة تابعة للمعنى، أما السجع فالمعنى تابع له.

٣-أن الفاصلة جاءت ناقضة للعادة التي تعارف عليها الناس، أما السجع فهو من معين أقوال الناس.

٤- الفاصلة القرآنية لم تأت على نظام مخصوص، أو: لم تخضع لكيفية معينة في اللفظ والجرس، والسجع إن خرج عن نظامه، بطل مطابقة اسمه مسماه[(١)].

❁ علم عدّ الآي

هو العلم الذي يبحث عدد آي كل سورة، وبداية كل آية منها وخاتمتها، وأدلتها، واختلاف الناقلين لذلك، ووجه كل من عدّ أو ترك.

وقد اشتهر هذا العلم، وخاصة في هذا الزمان بـ "الفواصل"، وهي تسمية جاءت في ثنايا كتب السابقين كسيبويه والفراء وغيرهما[(٢)]، أما من أفردوا هذا العلم بالتأليف من السابقين فجُلُّهم على تسميته بـ: "عدّ الآي"، ولم يطلق عليه من السابقين علمَ "الفواصل" إلا سليمان بن عبد القوي الطوفي [ت ٧١٦هـ] الذي سمّى كتابه في هذا العلم "بُغية الواصل إلى معرفة الفواصل"، ثم اقتفى أثره في هذه التسمية بعض المحْدَثين، كالشيخين رضوان المخللاتي، وعبد الفتاح القاضي[(٣)]. وغيرهما.

(بين يدي السورة)

وفيه بيان عدد آيات سورة المزمل، ومقصودها، والقراءات المتواترة التي وردت فيها.

❁ أولا: عدد آيات السورة:

---

(١) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (ص: ٢٥٥).

(٢) ينظر: الكتاب لسيبويه (١٨٥/٤)، معاني القرآن للفراء (٤٤/١). ويرى د. أحمد مكي الأنصاري أن الفراء أول من وضع هذهالتسمية (الفواصل).ينظر: أبو زكريا الفراء ومنهجه في النحو واللغة: ٣٠٢.

(٣) ينظر: الروايات الشاذة في علم عدّ الآي، دراسة في التصحيح والترجيح: ٣١١٦.

عدد آياتها ثماني عشرة آية عند المدني الأخير، وتسع عشرة عند البصري والمكي في رواية غير الداني عنه، وعشرون عند المدني الأول والشامي والكوفي والمكي في رواية الداني.

❁ **وقاعدة فواصلها:** (مال)، نحو: ﴿رَّحِيمٌ﴾، ﴿قَلِيلًا﴾، ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.

❁ **اختلافهم في أربعة مواضع:**

الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾[آية:١] عدّه المدني الأول والشامي والكوفي.

الثاني: ﴿إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ [آية:١٥] عدّه المكي.

الثالث: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [آية:١٥] عدّه غير المكي كما في رواية غير الداني عن المكي ولم يعُدّه المكي كما في رواية الداني عنه.

الرابع: ﴿ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [آية:١٧] لم يعدّه المدني الأخير وعدّها الباقون.

❁ **مشبّهُ الفاصلة المتروك أربعة مواضع:**

الأول: ﴿وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[آية:١١]. **الثاني:** ﴿أَنكَالًا﴾ [آية:١٢].

الثالث: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ [آية:٢٠]. **الرابع:** ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [آية:٢٠] (١).

وقد نظم الإمامُ الشاطبيُّ اختلاف المصاحف في عدد آيات هذه السورة، ومواضع الاختلاف فيها في قصيدته "ناظمة الزهر" فقال:

وَ(مُزَّمِّلٌ) عِشْرُونَ مُثْرٍ (٢) أَلَا دَنَا وَالَاخِرُ حُزْ يُمْناً ، وَتِسْعٌ مَعَ الْعَشْرِ

(١) ينظر: البيان في عد آي القرآن: ٢٥٧، لوامع البدر في بستان ناظمة الزهر، للأيوبي: ٤٨٦، والقول الوجيز في شرح فواصل الكتاب العزيز، للمخللاتي: ٢٧٠.

(٢) كلمة (مُثْر) في قصيدة "ناظمة الزهر" رمز للعددين المكي والكوفي، والألف من (ألا) رمز للمدني الأول، والدال من (دنا) رمز للشامي، والواو من (وعى) و(ورى) رمز للبصري، والجيم من (جُد) و(جلا) رمز للمكي، والباء من (بدا) و(بن) رمز للمدني الأخير، والمراد بـ(الآخِر) المدني الأخير.= =أما الحاء والياء من كلمتي (حُز) (يُمناً) فهما من حروف (أبجد هوّز) لكل واحد منهما قيمة عددية في هذه القصيدة، فالقيمة العددية لحلاف الحاء=(٨)، ولياء=(١٠). ينظر في الاستدلال على ما تقدم الأبيات من: ٦٢ ، إلى ٦٥ من ناظمة الزهر.

وَعَى جُدْ بِخُلْفٍ، شِيباً اسْقِطْ بَدَا وَعُدّ ... دَ مَـكِّ رَسُـولاً أَوَّلاً ، وَاتـرُكَـنْ وَادْرِ
لَـهُ ثَانِياً بِالخُلْفِ ، مُزَّمِّلُ اتْرُكَنْ ... وَرَى بِنْ جَلَا ، وَاعْـدُدْ جَحِيماً بِلَا نُكْـرِ
وَدَعْ حَسَناً أَجَـراً وَأَنْكَـالاً الْمُكَـذِّ ... ذِبِينَ . وَتِلْـوَ نَـلْ وَلَا خَمْـسُ لِلْكُـثْرِ

❁ ثانياً: مقصود السورة:

الإشعارُ بمُلاطفة الله تعالى رسولَهُ ﷺ، والإعلام بأن محاسن الأعمال تَدفَعُ الأخطارَ والأوجال، وتخفِّفُ الأحمال الثقال، ولا سيما الوقوف بين يدي الملك المتعال، والتجرد في خدمته في ظلمات الليال، فإنه نعم الإله لقبول الأفعال والأقوال، ومحو ظلل الضلال، والمعين الأعظم على الصبر والاحتمال، لما يرد من الكدورات في دار الزوال[(١)].

❁ ثالثا: القراءات المتواترة:

أ- القراءات المتواترة الفرشية[(٢)]:

لم ترد قراءات متواترة فرشية في هذه السورة إلا في الألفاظ الآتية:

١- ﴿أَوِ ٱنقُصْ﴾: [آية٣]: حيث قرأه عاصم وحمزة بكسر الواو وصلاً، وقرأ باقي القراء بضمّ الواو وصلاً، ووقف الجميع بإسكانها[(٣)].

٢- ﴿وَطْـًٔا﴾ [آية٦]: قرأ البصري والشامي بكسر الواو وفتح الطاء وألف بعدها، والباقون بفتح الواو وإسكان الطاء، ويقف عليه حمزة بالنقل فقط.

٣- ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ [آية٩]: خفَضَ الباءّ ابن عامر وشعبة ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف العاشر، ورفعها الباقون.

٤- ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ [آية٢٠]: قرأ هشام بسكون اللام، وقرأ غيره بضمها.

---

(١) ينظر: نظم الدرر (٢٠٢/٨)، التحرير والتنوير (٢٥٤/٢٩).

(٢) الفرش هو ما قلّ دَوْره من حروف القراءات المختلف فيها، فهي مفروشة أي مذكورة في أماكنها من السور، بخلاف الأصول، جمع أصل، وهو القواعد الكلية التي تنطوي على الجميع. ينظر: سراج القارئ المبتدي: ١٧١.

(٣) ينظر: النشر ٢٢٥/٢ .

٥- ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [آية٢٠]: قرأ المدنيان والبصريان والشامي بخفض الفاء في ﴿وَنِصْفَهُۥ﴾، والثاء الثانية في ﴿وَثُلُثَهُۥ﴾، ويلزم منه كسر الهاء فيهما، والباقون بنصب الفاء والثاء، ويلزمه ضم الهاء فيهما(١).

ب- القراءات المتواترة الأصولية:

ورد من القراءات التي تندرج تحت أبواب الأصول في هذه السورة ما يأتي:

١- ﴿"مِنْهُ [٣، ٢٠]، عَلَيْهِ[٤]، إِلَيْهِ[٨]، فَاتَّخِذْهُ[٩]، فَأَخَذْنَاهُ[١٦]، تُحْصُوهُ[٢٠]، تَجِدُوهُ [٢٠] ﴾: قرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير في كل ما تقدم حالة الوصل.

٢- ﴿الْقُرْآنِ﴾ [٤، ٢٠]: قرأ ابن كثير بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها وحذف الهمزة في الحالين، وبهذا يقرأ حمزة وقفاً فقط.

٣-﴿مُنفَطِرٌ ، تَذْكِرَةٌ ، يُقَدِّرُ، خَيْراً، وَاسْتَغْفِرُوا﴾ قرأ ورش بترقيق الراءات.

٤-لورش تغليظ لام ﴿الصَّلَاةَ﴾، وله ثلاثة البدل في الحالين في ﴿فَاقْرَءُواْ﴾ في موضعيها، ولحمزة وقفاً فيه التسهيل والحذف، ولأبي جعفر إخفاء النون في ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾، وله وللأصبهاني عن ورش إبدال الهمزة ياءً خالصة في الحالين في لفظ ﴿نَاشِئَةَ﴾، وبهذا يقرأ حمزة وقفاً، مع مراعاة إمالة هاء التأنيث وما قبلها للكسائي وقفاً فيه وفيما شاكله نحو: ﴿النَّعْمَةِ، غُصَّةً﴾ وغيرهما. وللسوسيّ إدغام الهاء في الهاء من قوله تعالى: ﴿عِندَ اللَّهِ هُوَ﴾.

٥- ﴿فَعَصَى، أَدْنَى، مَرْضَى، التَّقْوَى﴾ بالإمالة لحمزة والكسائي وخلف العاشر، وبالتقليل لورش بخلف عنه، ولأبي عمرو بلا خلاف في ﴿مَرْضَى، التَّقْوَى﴾. ولحمزة وابنِ ذكوان بخُلْفه إمالة الألف في ﴿فَزَادُوهُمْ﴾، ولابن ذكوان وخَلَفٍ العاشر وحمزة الإمالةُ في لفظ ﴿شَاءَ﴾. ولأبي عمرو ودوري الكسائي الإمالةُ في ﴿النَّهَارِ﴾، ولورش التقليل فيها بلا خلاف(٢).

(١) ينظر: النشر ٣٩٣/٢، والبدور الزاهرة: ٣٣٠.

(٢) ينظر: البدور الزاهرة، للقاضي: ٣٢٩.

٦- صلة ميم الجمع وصلا لقالون بخلفه، وابن كثير وأبي جعفر في ﴿وَاهْجُرْهُمْ، ومَهِّلْهُمْ، إِلَيْكُمْ﴾ وأمثالها.

٧- عدم الغنة لخلف عن حمزة في ﴿وَطْئَاً وَأَقْوَمُ، أَنْكَالاً وَجَحِيماً﴾ وغيرهما.

٨- النقل لورش في الحالين ولحمزة بخلف عنه وقفاً في ﴿الْأَرْضِ﴾ في موضعيها، ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾، وغيرهما، وما فيهما من السكت لخلف قولاً واحدا في ﴿الْأَرْضِ﴾، وبخلف عنه في ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾، وبالسكت بخلاف لخلاد في ﴿الْأَرْضِ﴾.

٩- الوقف بإضافة هاء السكت في لفظ (هو) من قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقفاً ليعقوب.

١٠- إضافةً إلى المدّين المنفصل في ﴿يَا أَيُّهَا، نِصْفَهُ أَوْ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَدَيْنَا أَنكَالاً، أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ، كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى﴾، والمتصل في ﴿السَّمَاءُ، شَاءَ، وَطَائِفَةٌ﴾.

المبحث الأول

« لطائف وأسرار فواصل آيات مطلع السورة»

المطلب الأول: فواصل آيات الأمر بقيام الليل، (وفيه الآيات من ١-٤).

❁ الفاصلة الأولى: (المزمل) من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾:

سبق ذكر اختلاف علماء العدد في عدّ هذه الفاصلة، وأنها معدودة آية عند المدني الأول والشامي والكوفي، والكلام أولاً على وجه وسرّ عدّها، ثم يأتي وجه من تركها.

وهذه الفاصلة ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ من فرائد القرآن الكريم، فلم تتكرر هذه الكلمة في موضع آخر منه[(١)]، ومجموع ما ذكره المفسرون في معناها يدخل تحت أصلين، أوّلهما: المتحمّل، وثانيهما: الملتفُّ بثيابه أو بكساءٍ.

قال القرطبيُّ (ت: ٦٧١هـ): "وفي أصل "الْمُزَّمِّل" قولان: أحدُهما: أنه المحتَمِلُ، يقال: زَمَلَ الشيءَ إذا حَمَلَهُ، ومنه الزَّامِلَةُ؛ لأنها تَحْمِلُ الْقُماشَ. الثاني: أنّ المُزَّمِّلَ هو المُتَلَفِّفُ، يقال: تَزَمَّلَ وَتَدَثَّرَ بثوبه إذا تغَطَّى، وزَمَّلَ غيرَه إذا غطّاه، وكل شيءٍ لُفِّفَ فقد زُمِّلَ ودُثِّرَ"[(٢)].

وعلى كونه (الملتفُّ بثيابه)، فسبب وصفه ﷺ في هذه الآية بهذا الوصف أحد أربعة أمور:

أ - كان متزملاً في ثيابه، كأنه متأهب للصلاة، على معنى: يا أيها المستعدُّ للعبادة، المتزمّلُ لها، وهو قول قتادة[(٣)]، وهو الراجح عند الطبري؛ ودلَّ على ذلك قوله:

---

(١) من الملفت للانتباه أن تحتوي هذه السورة الكريمة- وهي من أوائل ما نزل- على عدد من المفردات الفرائد التي لم ترد إلا فيها، مثل: "تبتّل"، "تبتيلاً"، "غُصّة"، "كَثِيباً"، "مَهِيلاً"، وكذلك مفردة "ناشئة" في لفظها دون مادتها.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣٢/١٩).

(٣) قلتُ: ولعل قتادة هنا يقصد: الصلاة على الكيفية الإبراهيمية، وإلا فإن الصلاة بكيفيتها المعلومة عند المسلمين لم تكن قد فُرضت بعدُ.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾، فكان ذلك بياناً عن أن وصفه بالتزمُّل بالثياب للصلاة، وأن ذلك هو أظهر معنييه، وهذا القول مدح له ﷺ[(١)].

ب – تزمّلَ بثيابه من فزعٍ أصابه أول ما رأى الملَك، فرجع مرتعداً وقال لزوجه خديجةَ: زملوني[(٢)]، فنُودِيَ بصفة فِعْله، وهو قول ابن عباس والزهري[(٣)].

ج – تزمّلَ بثيابه من شدة ما يُلاقي من قريش من تكذيبهم له، حيث بلغه من المشركين سُوءُ قَوْلٍ فيه، فاشتدّ عليه فتزمّل في ثيابه فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾[(٤)].

د – تزمّلَ بثيابه للنوم، والمعنى: يأيها النائم، قاله السُّديّ[(٥)].

وعلى كون ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ معناها (المتحمّل)، وهو من: زَمل الشيء إذا حمله، ومنه الزاملة التي تحمل القماش، فالمعنى: يا أيها المتحمّل للقرآن، أو: يا أيها المتحمّل النبوةَ وأعباءها، أي المشمِّرُ المُجِدُّ، وعن عكرمة أنه قال: المعنى: يا أيها الذي زُمِّلَ أمراً عظيماً، أى: حَمَلَهُ. والزِّمْلُ: الحِمْلُ، وازدمله: احتمله[(٦)].

❁ أما اللغويون فقد ذكروا لهذه المادة (زمل) ومشتقاتها معاني كثيرة، منها:

---

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٦٧٦/٢٣)، الهداية الى بلوغ النهاية (٧٧٨٤/١٢)، المحرر الوجيز (٣٨٦/٥)، مفاتيح الغيب (٦٨١/٣٠).

(٢) كما في حديث عروة عن عائشة في «صحيح البخاري» ٤/١، (كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ)، حديث رقم: ٣، وإن لم يذكر في ذلك الحديث نزول هذه السورة حينئذ، وعليه فهو حقيقةٌ. وينظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٦).

(٣) ينظر: جامع البيان، للطبري (٦٧٦/٢٣)، مفاتيح الغيب (٦٨١/٣٠)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣٧٧/٦).

(٤) ينظر: جامع البيان، للطبري (٦٧٦/٢٣)، الهداية الى بلوغ النهاية (٧٧٨٤/١٢)، الجامع لأحكام القرآن (٣٢/١٩).

(٥) ينظر: التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ٣٧١).

(٦) ينظر: النكت والعيون، للماوردي (١٢٤/٦)، غرائب التفسير وعجائب التأويل، للكرماني (١٢٦٥/٢)، جامع البيان، للإيجيّ (٣٩٥/٤)، الكشاف (٦٣٦/٤)، مفاتيح الغيب (٦٨١/٣٠)، البحر المحيط (٣١١/١٠). والتزمُّلُ على هذا القول مجاز، وعلى غيره حقيقة.

العَدْوُ والإسراعُ، والإتْباعُ، والظَلْعُ[١]، والحِمْل والتحمُّل، والكثرة، والخفاء، والرفقة، والإرداف على البعيرِ الذي يَحْمِلُ الطعامَ والمتاعَ، والتلفُّفُ بالثوب، والشدةُ، وشَفْرَةُ الحَذَّاءِ التي يَقْطعُ بها الأَدِيمَ، وحديدةٌ كالهلالِ تُجْعَل في طَرَفِ رُمْحٍ لصَيْدِ البَقَرِ، وغير ذلك من المعاني[٢].

لقد أودع الله تعالى في هذه الفاصلة من المعاني الظاهرة والباطنة ما تُسَوَّدُ فيه الصفحات، وفيها من الإشارات إلى بعض هذه المعاني الشيء الكثير، ومن هذه الإشارات ما يلي:

١- ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾: اسم فاعلٍ من تَزَمَّلَ، والتَّزَمُّلُ مشتقٌّ من (الزَّمْلِ) بفتحٍ فسكونٍ، ومن معانيه: الخفاء والإخفاء[٣].

وكأن استخدام هذا اللفظ في هذه الفاصلة إشارة إلى أن أمر الدعوة سيبدأ في خفاء وسِتْر، وسيُطلبُ من أتباعها إخفاءها، ثم ما تلبث هذه الدعوة أن يُظهرها الله ويُعلنها، وهذا الخفاء والإخفاء لن يدوم طويلاً، ولن يبقى كثيراً، فالفاصلة المختومة بلفظ (التزمُّل) هي فاصلة وحيدة ضِمن عدد من فواصل هذه السورة بلغ العشرين أو قاربه، ولو رُوعِيَ أن هذه الفاصلة هي فاصلة فريدة في القرآن الكريم، فليس في القرآن كله فاصلة مختومة بلفظ (التزمّل) أو مشتقاته غيرها، وعدد آيات القرآن الكريم يزيد – في جميع الأعداد– عن ستة آلاف آية، فلو قِيسَت النسبة المئوية لفاصلة فريدة من ستة آلاف فاصلة لم تكن شيئاً مذكوراً، كذلك لو قِيست النسبة المئوية لِعُمْر الدعوة النبوية سِرّاً وفي خفاء، وقد كان ثلاثة أعوام فقط، بجانب عُمْر هذه الدعوة الذي تجاوز الأَلْفَ وأربعمائة عام لم تكن

---

(١) العرَجُ الخفيف. ينظر: المغرب في ترتيب المعرب (فصل الظاء مع الهاء)(ص: ٢٩٩).

(٢) تُنظر المعاني المذكورة وغيرها في: تاج العروس (فصل الزاي)، (٣١٢/١٤، ٣١٦).

(٣) قال في تاج العروس (فصل الزاي) ٣١٤/١٤: "والتَّزْمِيلُ: الإخْفاءُ، وأَنْشَدَ:
يُزَمِّلون حَنينَ الضِّغْنِ بَيْنَهُم .. والضِّغْنُ أَسْوَدُ أَو في وَجْهِه كَلَف. وينظر: التحرير والتنوير (٢٥٦/٢٩). ويؤكد ذلك أنّ القشيريَّ جعل الإخفاء هذا من معاني الآية المرادة، فذكر أن المعنى: "يا أيها الذي يُخفي ما خصصناه به قم فأنذر، فإنّا نصرناك"، وقريب من هذا قاله البقاعيّ. ينظر: لطائف الإشارات، للقشيريّ (٦٤٢/٣)، نظم الدرر (٢٠٢/٨).

النسبة شيئاً مذكوراً أيضاً، وتتضاءل النسبة وتقِلُّ مع مرور الزمن وبقاء هذا الدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فلعل الإشارة بهذه الفاصلة إلى هذا المعنى (الخفاء) كانت مقصودة، بدليل أن بعدها مباشرة جاء لفظ (الليل) في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾، وهو أيضاً محلٌّ للستر والخفاء[(١)].

٢- أصل ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾: المُتَزَمِّلْ، ولكن أُدغمت التاء في الزاي؛ لقرب المخرجين[(٢)]، فما دلالة الإدغام؟

بما أنّ الإدغامَ إدخالُ حرف في آخر بحيث يصيران حرفاً واحداً، ويكون كثيراً في الحروف المتقاربة، والمتماثلة والمتجانسة أيضاً، فلعلّ إدغام التاء في الزاي إشارة إلى أن أتباعَ هذا الدين، وحَمَلَةَ هذا الكتاب الذي سيُلقَى إليك أيها النبيّ الخاتم سيكونون على مقدار من التقارب والتلاحم بحيث يصير الاثنان كجسد واحد من شدة التحابِّ والتقارب والتراحم، وهو ما يجسّده حديث النبيّﷺ فيما رواه النعمان بن بشير: "مثل المؤمنين في توادّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[(٣)].

وسبق أن من دلالات مادة "زمَلَ" في اللغة: الخفاء، والإسراع، فقد يكون من دلالات إدغام التاء في الزاي من "المتزمل" الإشارة إلى خفاء أمر النبوة على الناس أول أمرها، وإشارة إلى خفاء أمر الوحي على الناس وعلى النبي أيضاً ﷺ، وفيه إشارة إلى سرعة انتشار هذا الدين، وسرعة تمكّنه في قلوب مُعْتنقيه.

وفائدة التزمل: أن الشجاع الكامل إذا دَهَمَهُ أمرٌ هو فوق قواه ففَرَّق أمرَهُ، فرجع إلى نفسه، وقصر بصَرَه وبصيرته على حِسِّهِ، اجتمعت قواه إليه فقَوِيَتْ جِبِلَّتُه الصالحة على

---

(١) ينظر: نظم الدرر (٢٠٣/٨) بتصرف. ثم إن مجيء هذه الفاصلة على صيغة اسم الفاعل دون اسم المفعول فيه إشارة إلى عناية القرآن بحاله ﷺ دون حال زوجه استجابةً لطلبه.

(٢) ينظر: معانى القرآن للأخفش (٥٥٢/٢)، التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٦).

(٣) صحيح مسلم، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، (١٩٩٩/٤)، حديث رقم: ٢٥٨٦.

تلك العوارض التخييلية فهزمتها، فرجع إلى أمر الِجبِّلة العلية، وزال ما عرض من العِلّة البدنية[(١)].

٣ – نزل القرآن الكريم بلسان عربيّ مبين، ومن عادة العرب الذي نزل القرآن بلسانهم أنهم كانوا إذا ذكروا المنادَى بوصف هيئته، من لِباس، أو قيام، أو اضِّجاع ونحوها، كان المقصود–غالباً– التلطف به، والتحبّب إليه.

قال السهيليُّ (ت: ٥٨١هـ): وليس ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ اسماً من أسماء النبيّ ﷺ، ولم يُعرف به كما ذهب إليه بعض الناس، وعَدُّوه في أسمائه ﷺ، وإنما المزمّل اسمٌ مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب، وكذلك المدثر. وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وتَرْكَ المعاتبة نادوه باسمٍ مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي ﷺ لعليٍّ حين غاضَبَ فاطمةَ رضي الله عنهما، فأتاه وهو نائمٌ وقد لصق بجنبه الترابُ فقال له: (قم يا أبا تُرابٍ)[(٢)] إشعارًا له بأنه مُلاطِفٌ له، وأنه غير عاتبٍ عليه. وكذلك قوله ﷺ لحذيفة: (قم يا نَوْمَان)[(٣)] وكان نائمًا، ملاطفةً له، وإشعارًا لتَرْكِ العَتْبِ والتأنيب، فقول الله تعالى لمحمدٍ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ﴾ فيه تأنيسٌ وملاطفةٌ، ليستشعر أنه غير عاتبٍ عليه.

والفائدة الثانية: التنبيهُ لكل متزمّل راقدٍ ليلَهُ ليتنّبه إلى قيام الليل وذكرِ الله تعالى فيه؛ لأن الاسمَ المشتقَّ من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كلُّ من عمل ذلك العملَ واتصفَ بتلك الصفةِ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (٢٠٤/٨).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٩٦/١)، باب: نوم الرجال في المسجد، حديث رقم: ٤٤١.

(٣) ينظر: صحيح مسلم (١٤١٤/٣)، باب: غزوة الأحزاب، حديث رقم: ١٧٨٨.

(٤) الروض الأنف(٥٥/٣)، وينظر: الجامع لأحكام القرآن (٣٣/١٩)، التسهيل لعلوم التنزيل (٤٢٢/٢)، البحر المحيط (٣١١/١٠). ولخّصَ الشهابُ ما سبق بقوله: "قصداً لرفع الحجاب، وطيّ بساط العتاب، وتنشيطاً له ليتلقى ما يرد عليه بلا كسل". حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي (٢٦١/٨).

ويقول ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ): "والأصلُ في النداء أن يكون باسم المنادَى العَلَم إذا كان معروفًا عند المتكلم، فلا يعدل من الاسم العَلَم إلى غيره من وصفٍ أو إضافةٍ إلا لغرضٍ يقصده البلغاء من تعظيمٍ وتكريمٍ، نحو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٥]، أو تلطفٍ وتقرّبٍ نحو: "يا بني" و"يا أبت"، أو قصد تهكمٍ نحو: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]"[(١)].

٤ - قال الزمخشريُّ (ت: ٥٣٨هـ): "وعن عكرمة: أنّ المعنى: يا أيها الذي زُمِّلَ أمراً عظيماً، أى: حُمِّلَهُ. والزِّمْلُ: الحِمْلُ. وازدمله: احتمله".

وقال الإيجيُّ (ت: ٩٠٥هـ): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾... أو أيها المتحمِّل للقرآن من الزَّمْلِ الذي هو الحَمْلِ".

وقال الزبيديّ (ت: ١٢٠٥هـ): والزَّامِلَةُ: التي يُحْمَلُ عليها طعامُ الرَّجُلِ ومتاعُهُ في سَفَرِه من الإبِلِ وغَيْرِها، فاعِلَةً من الزَّمْلِ: الحَمْلِ... والزَّمِيلُ: الرَّديفُ على البَعِيرِ الذي يَحْمِلُ الطعامَ والمَتاعَ"[(٢)].

يؤخذ من كلام الأئمة: الزمخشريّ والإيجيّ والزبيديّ السابقِ إشارة وتبشير للنبي ﷺ أنه سينزل عليه كتاب كتكابيْ موسى وعيسى -عليهما السلام-، وأنّ النبيّ ﷺ سيتحمل هذا الكتاب ويؤدّيه على أكمل وجه، ويبلّغه أفضل بلاغ، كمن تحمّل حَمَالة وأدّاها على خير وجه، مع كونه أعظم كتاب لأضخم رسالة في الوجود، كونها رسالة عامة إلى جميع الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وفي هذا تطمين لفؤاد النبي ﷺ حتى لا يقلق، فإنه محفوف ومسدد ومعان بإعانة الله تعالى له.

وقد وجدتُّ في كلام البقاعي ما يؤيد ما فهمته من كلام الأئمة السابقين، حيث قال: "على أن فيه مع ذلك إشارة إلى البشارة بالقوة على حمل أعباء ما يراد به، من قولهم: زَمِلَ الشيءَ - إذا رَفَعَهُ وحَمَلَهُ، والازدمال: احتمال الشيء، وزَمَلْتُ الرجلَ على البعير

(١) التحرير والتنوير (٢٥٥/٢٩). ومراد ابن عاشور: "قصْد تهكّمٍ" على لسان المشركين.
(٢) ينظر: جامع البيان، للإيجيّ (٣٩٥/٤)، الكشاف (٦٣٦/٤)، وتاج العروس (فصل الزاي)، (٣١٤/١٤)، وكذا: مفاتيح الغيب (٦٨١/٣٠).

وغيرِهِ – إذا حَمَلْتُه عليه، ومن زَمَلَتِ الدابةُ في عَدْوِهَا – إذا نَشِطَتْ، والزَّامِلُ من حُمُرِ الوحوش الذي كأنه يظلع[١] من نشاطه، ورجل إزميل: شديد، والزاملة: بعير يستظهر به الرجل لحمل طعامه ومتاعه عليه، ويقال للرجل العالم بالأمر: هو ابن زوملتها"[٢]. والله أعلم.

٥ – في ختام الآية بهذه الفاصلة المنتهية بحرف اللام[٣] إشارة إلى ما ينبغي أن عليه القائم بين يدي الله بهذا القرآن الذي أخبر سبحانه أنه سيُلقيه على قلب النبي ﷺ ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾ من الجلَدِ والقوة والثبات والطمأنينة، والالتصاق بجناب الله عز وجل، كما هو مستفاد من مخرج اللام، فعند النطق به تلتصق حافة اللسان أو أدناها بما يليها من الحنك الأعلى، مما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية[٤]. ومن صفات هذا الحرف أنه مجهور، والجهر من صفات القوة.

ثم إن حرف اللام هذا الذي خُتِمتْ به الفاصلةُ الأولى "يعبّرُ صوتياً عن نوع من الامتداد من شيء، كالتعلُّق مع تميّز أو استقلال"، وهو يخرج بامتداد طرف اللسان حتى يلتقي بأعلى اللثة[٥]، وختامها بهذا الحرف فيه إشارة إلى امتداد هذا الدين وبقائه ما بقيت الدنيا، كما أن فيه إشارة إلى امتداد هذا الكتاب من السماء إلى الأرض، وربطه بينهما منذ الساعات الأولى لنزوله، فهو كحبلٍ طرفه الأول في السماء، وطرفه الثاني في الأرض، وفي إشعار النبيّﷺ بهذا الشعور من امتداد هذا الدين وبقائه، واتصاله وتعلقّه بمنزِّلِهِ ﷻ، في هذا طمأنينة لقلبه ﷺ بأنه محفوف مغمور بعناية الله عز وجل، وهذا

---

(١) الظلعُ: العَرَجُ. ينظر: لسان العرب (فصل الظاء)، (٢٤٣/٨).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٢٠٣).

(٣) وهو حرف صحيح، بخلاف باقي حروف فواصل السورة المنتهية بحرف علة، وهو الألف المبدلة من التنوين، باستثناء فاصلة الآية الأخيرة.

(٤) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢٠٠/١).

(٥) وليس في الحروف حرفاً أوسع مخرجا منه لطوله. ينظر: جهد المقل: ١٠، نهاية القول المفيد: ٣٨، المعجم الاشتقاقي المؤصل: ٣٦/١. وصفات حرف اللام هي: الجهر، التوسط، الاستفال، الانفتاح، الذلاقة، الانحراف.

الشعور يجعله يبلّغ رسالة ربه بقلب ثابت، ونفس مطمئنة، وقدم راسخة لا تتزلزل ولا تزول.

كما يلحظ المتأمل ابتداء هذه الفاصلة بحرف متوسط بين الشدة والرخاوة هو "الميم"، وانتهاؤها بحرف متوسط بين الشدة والرخاوة أيضاً هو "اللام"، ولعل في هذا التوسط إشارة إلى وسطية هذا الدين الجديد الذي كانت هذه السورة من بدايات ما نزل من كتابه.

٦ – لعلّ الله تعالى بهذه الفاصلة يُطْلِع نبيَّه ﷺ على بعض الغيب، فيُعلِمه بمستقبل هذا الدين، وما سيكون عليه، ففي هذه اللفظة إشارة إلى أن تاريخ هذا الدين لن يكون في استقرار دائم، بل سيمُرُّ بمراحل ضعف لكنه لن يموت(١)، وهذه المراحل أشبه بالعَرَجِ الخفيف الذي يصيب الرَّجُلَ أو البعير فيُعِيقُهُ عن السير السريع لكنه لا يجعله كَسِحاً أو عاجزاً، وذلك أخذاً من قولهم: الزِّمَال، وهو ظَلْعٌ وعَرَجٌ خفيف يصيب البعير، ومن قولهم: الزَّامِلُ من الدَّوابِّ. أو من حُمُرِة الوحشِ: الذي كأَنَّه يَظْلَعُ من نَشاطِهِ(٢).

٧ – سبق أن هذه الفاصلة ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أصلها: (المتزمل)، وإدغام تاء التفعّل في الزاي بعدها فيه إشارة إلى أن الثوب الذي تلفَّفَ واستَتَرَ به النبيّ ﷺ وتزمَّلَ لم يكن يعُمّ جميع بدنه الشريف(٣)، وهذا معناه أنّ النبيَّ ﷺ المخاطَبَ بهذا اللفظ كان في درجة عالية من اليقظة بالقلب وإن ستر القالب، وأنه إنما سترَ العينَ ليجتمع القلب، فيكفي في ذلك سَتْرُ الرأس وما قاربه من البدن، والإدغام شديد المناسبة للتزمل وللدثار(٤).

(١) وقد كان ذلك بالفعل، إذْ مرّت الدولة الإسلامية بفترات ضعفٍ عبر تاريخها، قصُرت أحياناً وطالت أحياناً أخرى، والباحثُ لا يقصد ضعف الدين كَدِينٍ، وإنما المقصود ضعف أهله ونقَلَته، ففي الكلام مجاز.

(٢) ينظر: تاج العروس (فصل الزاي)، (٣١٢/١٤).

(٣) ينظر: نظم الدرر (٢٠٣/٨).

(٤) نظم الدرر (٢٠٣/٨، ٢٢٠) بتصرف.

٨ – يلمحُ القارئُ لكتاب الله عز وجل تشابهاً بين فواصل ثلاث سور من السور الأربع الأولى في النزول[١]، هذه السورُ الثلاثُ هي: العلق والمزمل والمدثر، وهذا التشابه هو كَوْن مطلع كلٍّ منها ينتهي بمقطع مغلق، أو صامت، ثم تتوالى بعد ذلك الفواصل التي تنتهي بمقطع مفتوح، أو حرف جوفيّ هوائيّ[٢]، ليس له حيّزٌ ينقطع الصوت فيه، بل هو ممتدٌ بامتداد الجوف إلى الخارج[٣].

ولعل في هذا إشارة إلى أن مطلع سِنِيّ الدعوة سيكون عسيراً صعباً فيه تعنت وصعوبة وتحدٍّ ومكابدة، ثم تنفتح الأجواء بعد ذلك، وتعم الدعوة أرجاء المعمورة، ولن يقف في وجهها عائق، كالحروف الجوفية الهوائية التي خُتمت بها أغلب آيات سورة المزمل –عدا آيتين فقط –، وكذلك بعض آيات سورة المدثر، وأغلب آيات سورة العلق. ففي هذه الحروف إشارة إلى أن دعوة الإسلام ستجد أرضاً رحبة في مرحلة ما، وستدخل جميع الدُّور والبيوت كما يدخل الهواء بسلاسة ويسر، وختام الفواصل بهذه الحروف الهوائية فيه إشارة إلى أن حاجة الناس إلى هذه الدعوة وهذا الدين كحاجتهم إلى الهواء.

وفتحُ الفم وقفاً على هذه الفواصل ربما يشير إلى فتح الدنيا بهذا الدين، وفتح القلوب له، والفتح من الله على كل من يتبعه ويُخلص له، ثم الفتح في الآخرة بدرجات الجنان[٤]. والله أعلم.

٩– وجه عدم عدّ كلمة المزمل آية، التوقيف والأثر، وإتباع المنقول، فهو أمر لا قياس فيه[٥].

---

(١) من المتفق عليه بين العلماء أن سورة المزمل من السور الأربعة الأولى في النزول بعد سورتي العلق والقلم، وقبل سورة المدثر، على خلاف يسير، هل "المزمل" أسبق في النزول أم "المدثر". ينظر التحرير والتنوير (٢٥٧/٢٩، ٢٩٥).

(٢) وقد وصف الخليلُ الألفَ بأنها هوائية جوفية، وأنها سُمِّيَتْ بذلك لأنها تَخْرُجُ من الجوف، وهي هاوية في الهواء ليس لها حَيز تُنسب إليه إلا الجَوْفَ، وإنما نُسبت إلى الجوف؛ لأنه آخر انقطاع مخرجها، وقال أيضاً: "الأَلِفُ اللَّيِنَةُ والواو والياءُ هوائية"، أي أنها في الهواء. وسماها ابنُ الجزري - مع أختيها الواو والياء-: الهوائيةَ الجوفية، قال في متن الجزرية [البيت رقم: ١٠]:
"فَأَلِفُ الجَوْفِ وأُخْتَاهَا وَهِيْ .. حُرُوفُ مَدٍّ لِلْهَوَاءِ تَنْتَهِي". ينظر: العين (٥٧/١، ٥٨)، النشر (١٩٩/١).

(٣) وعدد هذه الفواصل التي تنتهي بحرف هوائي جوفي –حسب العدّ الكوفيّ- في سورة العلق: ٩ ، وفي المدثر: ٦، وفي المزمّل: ١٨ فاصلة.

(٤) أفدتُّ هذه اللطيفة من أستاذي الدكتور سامي هلال، العميد السابق لكلية القرآن الكريم.

(٥) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٤٤٩/٢).

قال الداني بعد أن ذَكَرَ أحاديث وآثاراً فيها دلالة على آيات ذات عدد معين: "ففي هذه السنن والآثار التي اجتلبناها في هذه الأبواب، مع كثرتها واشتهار نقلتها، دليلٌ واضح وشاهدٌ قاطع على أن ما بين أيدينا مما نقله إلينا علماؤنا عن سلفنا من عدد الآي ورؤوس الفواصل والخموس والعشور وعدد جُمَل آي السور – على اختلاف ذلك واتفاقه– مسموعٌ من رسول الله ﷺ، ومأخوذ عنه، وأن الصحابة –رضوان الله عليهم– هُمْ الذين تلقَّوْا ذلك منه كذلك تَلَقِّياً كتلقِّيهم منه حروف القرآن واختلاف القراءات سواء ... وقد زعم بعض من أهمل التفتيش عن الأصول، وأغفل إنعام النّظر في السنن والآثار، أن ذلك كله معلوم من جهة الاستنباط، ومأخوذ أكثره من المصاحف دون التوقيف والتعليم من رسول الله ﷺ، وبطلان ما زعمه، وفساد ما قاله غير مشكوك فيه عند من له أدنى فَهم وأقلُّ تمييز"[(١)].

وقال السخاويّ (ت: ٦٤٣هـ) بعد أن ذَكَر عدد آيات القرآن إجمالاً في الأعداد الخمسة، والآيات التي اختلفوا في عدّها: "... فإن قيل: فما الموجب لاختلافهم في عدد الآي؟

قلتُ: النقل والتوقيف، ولو كان ذلك راجعاً إلى الرأي لعدَّ الكوفيون ﴿ الٓرٰ ﴾ آية كما عدُّوا ﴿الٓمٓ﴾، وكيف عدُّوا ﴿ الٓمٓصٓ﴾، ولم يعدُّوا ﴿الٓمٓرٰ ﴾؟ ... فإن قيل: فلو كان ذلك توقيفاً لَمْ يقع اختلاف، قلتُ: الأمرُ في ذلك على نحوٍ من اختلاف القراءات، وكلها مع الاختلاف راجع إلى النقل"[(٢)].

ففي قوله: "الأمرُ في ذلك على نحو من اختلاف القراءات" تصريح بأن أعداد الآيات في المصاحف والأعداد المشتهرة الأمر فيها راجع إلى التوقيف والنقل عن النبيّ

(١) البيان في عد آي القرآن: ٣٩، ٤٠. وينظر: حُسْن المَدد : ٤٦.

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء ٢٣١/١، ٢٣٢. والمراد بالاختلاف هنا: تنوُّع القراءات.

ﷺ، "إذ لا مدخل للاجتهاد في عدّ آي القرآن"[(١)]، والاختلاف فيها كالاختلاف في القراءات.

وممن قال بالتوقيف أيضاً الأئمة: الهذليّ، والواحديّ، والزمخشريّ، والشاطبيّ، والسخاويّ، والجعبريّ، وشعلة الموصليّ، والسيوطيّ، والألوسيّ، والمخللاتي، وعبد العظيم الزرقانيّ، والطاهر بن عاشور، ومحمد أبو شُهبة[(٢)].

يضاف إلى ما تقدم من التوقيف: عدم مشاكلة هذه الفاصلة لباقي فواصل السورة[(٣)]. وما قيل هنا في علة العدّ والترك ربما يُستغنى عن ذكره مرة أخرى عند الحديث عن بقية الفواصل المختلف فيها، مثل: ﴿رَسُولًا﴾، ﴿شِيبًا﴾.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

❁ **الفاصلتان الثانية والثالثة: (قليلا)** من قوله تعالى: **﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٢﴾**

لعل من أسرار اختيار المولى عز وجل هذه اللفظة ﴿قَلِيلًا﴾ في هذه الفاصلة ما يلي:

١ – جاءت فاصلة الآية الثانية ﴿قَلِيلًا﴾ مُجْملة مبهمة دون تحديد ذلك القليل، ثم جاءت الكلمة التالية وهي ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ لتبيين هذا الإجمال، ورفع ذلك الإبهام، حيث إنّ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدل من ﴿قَلِيلًا﴾ بدلاً مطابقاً، فجعل القليل هنا النصف أو أقل منه بقليل.

---

(١) ينظر: التمييز في تلخيص تخريج أحاديث شرح الوجيز، لابن حجر ٦٦١/٢. وقال الإمام الألوسيُّ: "منهم من عدّ التسمية آية دون "أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" ومنهم من عكس، والمدار الرواية فلا يُوهِنُ الثاني أن وزان الآية لا يناسب وزان فواصل السور، على أن في سورة النصر ما هو من هذا الباب". روح المعاني ٣٨/١.

(٢) ينظر: الكامل في القراءات ١٤٦/١، الكشاف ٣١/١، ناظمة الزهر، البيتان رقم: ٢٢، ٦٠ ، جمال القراء وكمال الإقراء٢٣٢/١، حُسْن المَدد في معرفة فن العدد : ٥١، ٥٢، الإتقان ١٠٦/١، روح المعاني ٣٨/١، القول الوجيز : ١٠٦- ١٠٩، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٠- ١٥٤، مناهل العرفان ٣٤٠/١، التحرير والتنوير ٧٥/١، المدخل لدراسة القرآن الكريم، الشيخ محمد أبو شهبة: ٢٨١.

(٣) ينظر: لوامع البدر في بستان ناظمة الزهر: ٤٨٩.

وفائدة هذا الإجمال الوارد في الفاصلة: "الإيماءُ إلى أن الأَوْلَى أن يكون القيام أكثر من مدة نصف الليل، وأنّ جَعْلَهُ نصفَ الليل رحمةٌ ورخصةٌ للنبيّ ﷺ، ويدل لذلك تعقيبه بقوله: "أو انقص منه قليلا"، أي انقص من النصف قليلا، فيكون زمنُ قيام الليل أقلَّ من نصفه، وهو حينئذ قليلٌ، فهو رخصةٌ في الرخصة"، وذلك توسيع على حبيب الله ﷺ؛ لرفع حرج تحديده لزمن القيام، فسُلك به مسلك التقريب(١).

٢- التعبير في الفاصلة بهذا اللفظ ﴿قَلِيلًا﴾ فيه دلالة على أن النصف المغمور بذكر الله تعالى بمنزلة الكُلّ، وأن النصف الفارغ وإن ساواه في الكمية لكنه لا يساويه في التحقيق"(٢).

٣ – اختلف المفسرون في هاتين الآيتين اختلافاً كبيراً(٣)، وملخّص ما ذكروه:

أ – التخيير بين أمرين، أولهما: أن يقوم النبيُّ ﷺ أقلّ من نصف الليل على البتِّ. ثانيهما: أن يختار أحد الأمرين: النقصان من النصف أو الزيادة عليه، وهذا على اعتبار أن قوله تعالى: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدل من ﴿ٱلَّيْلَ﴾ بدلُ بعضٍ من كلٍ، و﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من النصف، والضميرُ في «مِنْه» و «عليه» عائدٌ على النصفِ(٤).

ب– التخيير بين ثلاثة أمور، هي: قيام النصف بتمامه، أو قيام الناقص منه، أو قيام الزائد على النصف. وهذا باعتبار ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدلاً من ﴿قَلِيلًا﴾(٥)؛ لأن النصف قليل

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥٩/٢٩). وينظر أيضاً: روح المعاني (١٠٢/٢٩). وقوله تعالى بعد الفاصلة: "أو زد عليه" عَوْدٌ إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل، ولذلك لم يقيّد "أو زد عليه" بمثل ما قيّدَ به "أو انقص منه"؛ لتكون الزيادة على النصف متّسعة. التحرير والتنوير (٢٥٩/٢٩).

(٢) ينظر: روح المعاني (١٠٢/٢٩).

(٣) ينظر النص على هذا الاختلاف الكبير في: مفاتيح الغيب (٦٨٢/٣٠)، الدر المصون (٥١٠/١٠)، – حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي (٢٦٢/٨، ٢٦٣)، روح المعاني (١٠٤/٢٩).

(٤) ينظر: الكشاف (٦٣٦/٤)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣٧٧/٦)، الدر المصون (٥١٠/١٠ - ٥١٦).

(٥) وإليه ذهب الزمخشريُّ وأبو البقاء وابنُ عطية. ينظر: الكشاف (٦٣٦/٤)، المحرر الوجيز (٣٨٧/٥)، وإملاء ما منّ به الرحمن: ٢٧١، الدر المصون (٥١٠/١٠).

بالنسبة إلى الكل، ولأن الواجب إذا كان هو النصف لم يخرج صاحبه عن العهدة إلا بزيادة شيء، فيصير الواجب بالحقيقة نصفاً وشيئاً، فيكون الباقي أقل منه[(١)].

ج – أَنْ يكونَ المعنى: قم الليل إلا قليلاً من الليالي، وهي الليالي التي تتركُ قيامَها بسبب عذر بيّنٍ يمنعك من قيامها، أي هو استثناء من الليالي باعتبار جزئياتها لا باعتبار الأجزاء، وهذا القول يَحْسُنُ مع القولِ بالنَّدْبِ[(٢)]، وفيه تيسير وتوسعة على النبيّ ﷺ.

٤ – ختام فاصلتي الآيتين الثانية والثالثة بنفس الكلمة ﴿قَلِيلًا﴾ المنتهية بحرف جوفيّ هوائي، مَخْرجُهُ متّسعٌ ليس له حيّزٌ، فيه إشارة إلى هذه السعة، وإلى هذه الاختلافات الواردة بين المفسرين، وكأنها كلها مرادة ومحتملة.

كما أن حرف اللام السابق لحرف الألف الموقوف عليه بما فيه من معنى الامتداد والطول يعطي إشارة إلى أن طول القيام في الليل مقصود.

وربما كان في صفات حرف اللام وهي: الجهر، والتوسط، والاستفال، والانفتاح، والإذلاق، والانحراف، إشارات إلى هيئة القائم أثناء القراءة، فالجهر ربما كان إشارة إلى أن عدم الإسرار بالقراءة والجهر بها أفضل في استحضار القلب وتدبر المعاني، وهو أقرب إلى التركيز من القراءة في السر. والاستفال وهو بمعنى الانخفاض إشارة إلى ضرورة خفض الجناح لله تعالى أثناء القيام وغيره، فإذا كان هذا جاء الفتح، وهو ما تشير إليه صفة الانفتاح. والله أعلم.

٥ – من أوجه المفارقة بين ختام فاصلة الآية الثانية ﴿قَلِيلًا﴾، وختام فاصلة الآية الأولى ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، أن الثانية زِيدَ فيها بعد حرف اللام حرفُ الألف المبدل من تنوين

---

(١) ينظر: الكشاف (٦٣٧/٤)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣٧٧/٦)، الدر المصون (٥١٠/١٠ - ٥١٦).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (٣٨٧/٥)، الدر المصون (٥١١/١٠)، التحرير والتنوير (٢٥٩/٢٩). وهناك قول للأخفش أنه على نية حَذْفَ حرفِ العطفِ قال: «إنَّ الأصل: قُم الليلَ إلاَّ قليلاً أو نصفَه، قال: "كقولك: أَعْطِه درهماً درهَمَين ثلاثةً"، أي: أو درهَمَيْن أو ثلاثةً. ينظر: معانى القرآن له (٥٥٢/٢).

الوقف ﴿قَلِيلًا﴾، بخلاف الآية الأولى المنتهية بحرف اللام ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، وزيادة الألف فيها إشارة إلى أن قيام الليل زائد على الفريضة، وفي الوقت نفسه يكون سبباً في زيادة الإيمان، وزيادة الثواب، وزيادة قوة القلب، كما كان فرض قيام الليل على النبيّ ﷺ في صدر رسالته من حِكَمِهِ: أن تزداد به سريرته زكاءً يقوّي استعداده لتلقي الوحي، حتى لا يُحرجه الوحي كما ضغطه عند نزوله، كما ورد في حديث البخاري: «فغطني حتى بلغ مني الجهد» ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1].

٦ – لعل ختام الفاصلتين الثانية والثالثة بنفس اللفظة ﴿قَلِيلًا﴾ إشارة إلى التخيير في قيام الليل في أوله أو في آخره، كأن يكون المعنى: (يا محمد قم كلَّ الليل إلا قَلِيلا منه، أو قم نصف الليل، أو زد على النصف، أو انْقُصْ من النصف قَلِيلا)، سواء كان ذلك القيام في ابتداء الليل أو في آخره، وسواء كان ذلك النصف الذي ستقومه هو نصف الليل الأول أو الأخير.

ثم إن مجيء هذه الفاصلة منكَّرةٌ لعله يؤكد الإشارة السابقة، وهي إفادة التوسعة والتخيير وعدم التضييق على قائم الليل، فالقليل المستثنَى غيرُ محدد بشكل قطعي نهائي، فقد يكون السدس، وقد يكون الثلث، وقد يكون الربع، وبكل من هذا قال بعض المفسرين، وفي الوقت نفسه قد يكون هذا القليل المستثنى ساعة أو ساعتين أو أكثر أو أقلّ بحسب طول الليل وقِصَره، وذلك بحسب اختلاف فصول العام، وكذا الأماكن والبلدان.

٧ – ختامُ هذه الفاصلة بحرف هوائيّ؛ ليس له حيّزٌ ينقطع الصوت عنده؛ لعل فيه إشارةً إلى أن قيام الليل ممتدٌ وفيه سعة، فمَن قام في أول الليل فهو محمود، ومن قام في وسطه أو آخره فهو كذلك محمود، ولعل فيه إشارةً أيضاً إلى أن مقدار القيام ومقدار الليل نفسه ليس ثابتاً ولا متعيّناً، فقد يطول الليل فيكون في بعض فصول السنة، أو في

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٥٨/٢٩)، والحديث في صحيح البخاري (٧/١)، باب بدء الوحي، رقم٣.

بعض البلدان أطول من عشر ساعات، وقد يقصر في بعضها فيكون على النصف من هذه المدة أو قريباً منها.

٨ – أمر الله تعالى بقيام الليل في الآية الثانية، ثم استثنى في فاصلة هذه الآية شيئاً قليلاً من الليل رخَّصَ في عدم قيامه، فالحديث عن عبادة خَفِيّة تُؤدَّى في الليل، وهذا الليلُ هو محل للستر والخفاء، والفاصلةُ السابقة ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ من معانيها اللغوية: "الخفاء"، وكأن المعنى: قم يا محمد وَصَلِّ لنا كلَّ ليلة في هذا الوقت، الذي هو وقت الخلوة والخفاء والستر، وقِفْ بين أيدينا بالمناجاة والأُنس بما أنزلنا عليك من كلامنا، فإنا نريد إظهارك وإعلاء قدرك في البر والبحر والسر والجهر[(١)]، وهنا تبدو المقابلة بين الأمرين، الليل وما فيه من خفاء وستر، والإظهار وإعلاء القدر بسبب الصلاة والمناجاة في هذا الوقت. كما تبدو المناسبة بين فاصلة الآية السابقة ومقصود الآية الثانية وفاصلتها، وما في كلٍّ منهما من معنى الخفاء.

٩ – في هذه الفاصلة إشارة إلى المجهود الذي بذله النبي ﷺ حين كُلِّف بقيام الليل؛ تهيئةً لنفسه الشريف لتحمّل أعباء هذه الرسالة وتبليغها، حيث دلّ الاستثناء في قوله تعالى: "قم الليل إلا قليلا" على أن القيام المأمور به يستغرق جميع الليل، ولذلك صح الاستثناء منه، إذ لو كان غير مستغرق، لم يصح الاستثناء منه، واستغراق جميعه بالقيام على الدوام غير ممكن، لذلك استثنى منه لراحة الجسد، وفي هذه الفاصلة دلالة على أن المستثنى قد يكون مبهم المقدار[(٢)].

١٠ – جاءت هذه الفاصلة مطلقة، فخُتمت بحرف المد المبدل من التنوين وقفاً، وكذلك أغلب فواصل هذه السورة، وكأن في هذا إشارة إلى أن الله تعالى يريد أن يُوصِلَ المعاني التي وردت فيها إلى أبعد مدى. والله أعلم.

---

(١) ينظر: نظم الدرر (٢٠٣/٨) بتصرف.

(٢) ينظر: البحر المحيط (٣١٢/١٠).

١١- المستثنى في هذه الفاصلة سماه الله ﴿قَلِيلًا﴾بالنسبة إلى جميع الليل، وبالنسبة إلى النصف الذي وقع إحياؤه؛ لأن ما يلي بالعمل أكثر مما لا عمل فيه، وجاءت العبارة هكذا لتفيد أن من قام ثلث الليل، بل رُبُعَهُ فما فوقه كان مُحْيِياً لليل كله.

ولما كانت الهمم مختلفةً بالنسبة إلى الأشخاص وبالنسبة إلى الأوقات قال: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾ أي هذا النصف الذي أمرت بقيامه، أو من النصف المستثنى منه القليل على الوجه الثاني وهو الثلث، ﴿قَلِيلًا﴾ فلا تُقِمْهُ حتى لو أحييت ثلث الليل على الوجه الأول، أو ربعه على الوجه الثاني كنت مُحْيِياً له كله في فضل الله بالتضعيف[(١)].

وجائز أن يكون هذا على اختلاف الأوقات، على ما ذكره أهل التفسير؛ فيكون قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أمرا بإحياء أكثر الليل، ثم يكون في قوله: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ تخفيف الأمر عليه؛ فيكون فيه أن له أن ينقص عن الأكثر[(٢)].

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

❁ **الفاصلة الرابعة: (ترتيلا) من قوله تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝﴾.**

لعل من أسرار اختيار الله عز وجل هذه اللفظة ﴿تَرْتِيلًا﴾ في هذه الفاصلة ما يلي:

جاءت هذه الفاصلة ﴿تَرْتِيلًا﴾ متمكنة في مكانها، مؤتلفة في موضعها مع ما قبلها وما بعدها، دالةً على معاني لا يمكن لغيرها من الألفاظ أن يدل عليها، وبيان ذلك من خلال ما يلي:

١- الترتيل: جعل الشيء مرتّلا، أي مفرّقاً، وأصله من قولهم: ثَغْرٌ مرتّل، وهو المفلّج الأسنان، أي المفرّق بين أسنانه تفرقاً قليلاً بحيث لا تكون النواجذ متلاصقة.

(١) ينظر: نظم الدرر (٢٠٥/٨).
(٢) ينظر: تأويلات أهل السنة (٢٦٨/١٠).

وأريد بترتيل القرآن: ترتيل قراءته، أي التمهّل في النطق بحروف القرآن حتى تخرج من الفم واضحة، مع إشباع الحركات التي تستحق الإشباع، وفائدته: أن يرسخ حفظه، ويتلقاه السامعون فيعْلَق بحوافظهم، ويتدبر قارئُه وسامعُه معانيه؛ كي لا يسبق لفظُ اللسان عملَ الفهم، فإذا وقعت القراءة على هذا الوجه فَهِم من نفسه معاني تلك الألفاظ، وأفهم غيرَه تلك المعاني، وإذا قرأها بالسرعة لم يَفْهَم ولم يُفْهِم، فالمقصد أن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرق القلب ويفيض عليه النور والرحمة والرضوان[(١)].

٢- هذه السورة من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، فمنذ الأيام الأولى لنزول القرآن يُعَلِّمُ اللهُ ﷻ نبيَّه ﷺ وأمَّتَه من بعده الأدبَ مع كلامه حال قراءته[(٢)]؛ لأن الناس وقت نزول هذه السورة كانوا ما يزالون متأثرين بعاداتهم، والتي لا تعرف ذلك الأدب مع مثل هذا الكلام حال أدائه، وهم بعد زمن أو أزمان سيتأثّرون بعاداتهم أيضاً، وينشغلون بدنياهم، فأراد ربُّنا-والله أعلم- أن يؤكّد على التزام ذلك الأدب والتوقير حال قراءة كتابه في صلاة أو غيرها، فأكّد ذلك بالمصدر ﴿**تَرْتِيلًا**﴾، قال الغزاليُّ: "واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر، فإن العجميّ الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة؛ لأن ذلك أقربُ إلى التوقير والإحترامِ، وأشدُّ تأثيرًا في القلب من الهذرمة والاستعجال"[(٣)].

ومن معاني (رَتَّلَ) في اللغة: "حُسْنُ تَناسُقِ الشيءِ وانْتِظامُه على اسْتِقامَةٍ"، فمن باب الأدب والتوقير لكتاب الله يجب أن تكون القراءة على هيئة من التنسيق والانتظام والاستقامة تليق بكلام الله تعالى، كالثغر المرَتَّل، الذي بين أسنانه فُرُجَات تُزيده حُسناً، وتمنع تركيب الأسنان بعضها على بعض.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز (٣٨٧/٥)، مفاتيح الغيب (٦٩/١)، التحرير والتنوير (٢٦٠/٢٩). ويرى الشيخ أبو زهرة أن الأمر بالترتيل وتأكيده في هذه الفاصلة، وكذا في فاصلة سورة الفرقان [آية: ٣٢] ليس هو مجرَّد القراءة، إنما الترتيلُ: القراءةُ المنغمة تنغيمًا يُظهر التناسق في الحروف والجمل والآيات ويكشف معانيها، ونغماتها، وتلك هي موسيقى القرآن. ينظر: المعجزة الكبرى القرآن (ص: ٢٢٢).

(٢) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري (٣٧٨/٦).

(٣) ينظر: إحياء علوم الدين (٢٧٧/١)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي (٥٠١/٥).

وهذا على اعتبار أن الأمر بالترتيل في هذه الآية أمر مستقل بكيفية قراءة القرآن، في كل وقت، جرى ذكره بمناسبة الأمر بقيام الليل، وليس هو متعلقاً بقيام الليل فقط، والقراءة في الصلاة تدخل في ذلك، وهو أولى الوجهين عند ابن عاشور[(١)].

وإذا كان تأكيد الأمر بترتيل القرآن ينسحب على جميع الأوقات وكل الأحوال، لكنه أوكد في قراءته في قيام الليل؛ لأن الأمر بالترتيل جاء عقب الأمر بقيام الليل، وذلك حتى يتمكن المصلي من حضور القلب، ويتمكن الخاطر من التأمل والتفكر في حقائق الآيات ومعانيها ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعَرُ بقلبه عظمة المذكور وجلاله، وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف، وعند ذكر القصص والأمثال يحصل الاعتبار، وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله، والإسراع في القراءة لا يحصل فيها ذلك، ويدل على عدم الوقوف على تلك المعاني؛ لأن النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية، ومن ابتهج بشيء أحبَّ ذكره، ومن أحب شيئاً لم يمُرّ عليه بسرعة، فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب وكمال المعرفة[(٢)].

٣- جاءت هذه الفاصلة ﴿تَرْتِيلًا﴾ من جنس الفعل ﴿وَرَتِّلِ﴾، وهي مفعول مطلق غرضه التأكيد، يفيد تحقيق صفة الترتيل، ويدل على شرفه[(٣)]، حيث إن تأكيد الفعل بالمصدر يدل على المبالغة على وجهٍ لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم من استيفاء حركته المعتبرة، فلم يقتصر ﷻ على الأمر بالفعل ﴿وَرَتِّلِ﴾ حتى أكَّده بالمصدر ﴿تَرْتِيلًا﴾ اهتماماً به وتعظيما له؛ ليكون ذلك عوناً على تدبر القرآن وتفهُّمه، وكذلك كان ﷺ[(٤)].

والتأكيد والمبالغة هنا في الفاصلة نفسها، مستفاد من إعادة الفعل مرة أخرى بنفس حروفه في الفاصلة ﴿تَرْتِيلًا﴾، وليس بسبب صيغة فِعْل الأمر الذي ماضيه على زِنة

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦٠/٢٩).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٦٨٣/٣٠)، لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (٤/ ٣٥٦)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري (٣٧٨/٦).

(٣) ينظر: نظم الدرر (٢٠٦/٨)، التحرير والتنوير (٢٦٠/٢٩).

(٤) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢٠٨/١)، فتح القدير (٣٧٩/٥).

(قَتَّلَ)، المفيد لكثرة القتل والمبالغة فيه؛ لأنّ صيغة (فعَّل) إنما تفيد المبالغة والتكثير إذا كان الفعل منقولاً إليها من الثلاثي، أما الأفعال الرباعية التي ليس لها ثلاثيّ تُنقل عنه مثل (كلَّمَ) و(رتّل) فلا تفيد المبالغة بأصل وضعها وإنما بشيء آخر، فـ(رتّل) كلمة رباعية موضوعة تدلّ على هذه الهيئة المخصوصة من القراءة، يراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأنّي والتدبُّر[(١)]، واستُفيدت المبالغة هنا من فاصلة الآية وهي المصدر ﴿تَرْتِيلًا﴾.

٤- أفادت هذه الفاصلة أيضاً غير ما تقدّم من المعاني حكماً شرعياً هو الوجوب عند البعض، حيث أمر الله تعالى بالترتيل بقوله: ﴿وَرَتِّلِ﴾، وأكده بقوله: ﴿تَرْتِيلًا﴾، فالفاصلة مفعول مطلق مؤكّد، يدل على الوجوب، قال الزمخشري وغيرُه: «و﴿تَرْتِيلًا﴾تأكيد في إيجاب الأمر به، وأنه مما لا بد منه للقارئ»[(٢)].

ورأى بعضُ العلماء أن الأمر في الآية ليس للوجوب[(٣)]، ويؤيده أن الخطاب وقع للنبي ﷺ، لكن يجب الترتيل بمعنى أدائه بمخارجه لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وغير ذلك من الآيات، ومخارج الحروف وصفاتها هي مما عُرف من كلام العرب الذي كانوا يتعاملون به بسليقتهم.

٥- لما أمر ﷻ بالقيام وقدَّرَ وقتَهُ وعَيَّنَهُ، أمر بهيئة التلاوة على وجه عام لليل والنهار، مُعْلماً بأن قيام الليل بالصلاة، والصلاة روحها القرآن، فأمر بقراءته على هيئة مخصوصة فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: اقرأه على تُؤَدةٍ، وبَيّن حروفَه بحيث يتمكن السامع من عَدِّها، وحتى يكون المتْلُوُّ شبيهاً بالثغر المرَتّل، وهو المفلّج المشَبَّه بنور

(١) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/ ٢٠٠).

(٢) الكشاف (٦٣٧/٤)، مفاتيح الغيب (٦٨٣/٣٠)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٥٥٦/٣)، حاشية الطيبي على الكشاف (٩٠/١٦)، اللباب في علوم الكتاب (٤٥٩/١٩).

(٣) ينظر: المجموع شرح المهذب (١٦٥/٢).

الأُقحوان[(١)]، فإن ذلك موجب لتدبّره، فتُكْشَف له مهماته، وينجلي عليه أسراره وخفيّاته، قال ابن مسعود ﷺ: ولا تنثروه نثر الدقل ولا تهذّوه هذّ الشعر، ولكن قِفُوا عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب، ولا يكن هَمّ أحدكم آخر السورة[(٢)].

٦- أمر الله بترتيل القرآن، وأكّد الأمر بما جاء في هذه الفاصلة؛ لأن القرآن لم ينزل لتجوَّدَ قراءتُه فقط، لكنه لمعان ثلاثة:

أحدها: أن يقرأ للحفظ والبقاء إلى يوم القيامة؛ لئلا يذهب، ولا ينسى.

والثاني: أن يقرأ؛ لتَذَكُّر ما فيه، وفهم ما أُودع من الأحكام، وما لله عليهم من الحقوق، وما لبعضهم على بعض.

والثالث: يُقرَأُ؛ ليُعملَ بما فيه، ويُتَّعَظَ الناس بمواعظه، ويجعله المسلمون إماماً يتبعون أمره، وينتهون عما نهى عنه؛ فتنفيذُ قراءته في الصلاة يُلزِمنا هذا كلَّه، ولا يُدرَكُ ذلك إلا بالتأمل، وذلك عند قراءته على الترتيل، وهذا الذي ذكرناه يوجب اختيار من يرى الوقوف في القرآن؛ لأن ذلك أدلّ على المعنى وأقرب إلى الإفهام[(٣)].

٧- تنكيرُ الفاصلة ﴿**تَرْتِيلًا**﴾ يدل على أهمية الترتيل وعظمته، وعلى وجوب المبالغة في تجويده وتحسينه، وأنه مما لا بد منه للقارئ، فالتنكير للتفخيمِ، أي: رتِّلْهُ ترتيلاً بديعاً لا يُقادَرُ قَدْرُهُ[(٤)].

٨- بضَمِّ هذه الفاصلة إلى فاصلة سورة الفرقان: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا**﴾، ومراعاة التأكيد بالمفعول المطلق فيهما يمكن لنا أن نستنبط أهمية

---

(١) الأُقْحُوانُ: البابونج، على أُفْعُلانٍ، وهو نبتٌ طيّبُ الريح، حواليه ورقٌ أبيض مؤلل كأسنان الْمِنْشَار، ووسطه أصفر، وَكثر فِي الْأَدَب الْعَرَبِيّ تَشْبِيه الْأَسْنَان بالأبيض المؤلل مِنْهُ. ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (قحا) (٢٤٥٩/٦)، المعجم الوسيط (٢٢/١).

(٢) ينظر: نظم الدرر (٢٠٥/٨).

(٣) ينظر: تأويلات أهل السنة (٢٦٩/١٠).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب (٦٨٣/٣٠)، مدارك التنزيل (٥٥٦/٣)، إرشاد العقل السليم (٢١٦/٦).

الترتيل، وأن ترتيل القرآن بتعليم تلاوته، وأنَّ تلاوة القرآن وطريقة ترتيله هما من تعليم الله تعالى؛ إذ إنه ﷻ أكّد الأمر في الآيتين، وأمر به النبيّﷺ في آية المزمل، ونسبه إلى نفسه تعالى في آية سورة الفرقان[(١)].

٩- ربما أشارت هذه الفاصلة ﴿تَرْتِيلًا﴾ إلى الحثّ على الإكثار من قراءة وتلاوة كلام الله على هذه الهيئة الحسنة من القراءة، وأن هذه الهيئة من التلاوة وخاصة في القيام في ظلمات الليل وسَوَادِهِ تكون سبباً في بياض الوجه وكثرة الثواب في الآخرة، وبياض السريرة في الدنيا، ولربما أشارت إلى أنها تكون سبباً في كثرة الزاد، سواء زاد الآخرة من الحسنات، أو زاد الدنيا من المال والمتاع، فهناك مقابلة بين القراءة بهذه الكيفية في سواد الليل، وبين كونها سبباً في بياض الوجوه ونقاء السرائر؛ ليقابل سواد الليل بياض الوجوه، فمن معاني (رتل): "بياض الأسنان وكثرة مائها، والكثيرُ الماءِ من الثُّغورِ، والماءُ الرَّتِلُ: البارد، والرَّتَلُ: الطَّيِّبُ من كُلِّ شيءٍ"[(٢)].

فبياض الأسنان يشير إلى بياض الوجوه، وكثرة ماء الثغر[(٣)] وكونه بارداً طيّباً يشير إلى كثرة الزاد في الدارين؛ لأن الماء زادٌ، وفي الوقت نفسه هو زاد طيب محبوب.

والإشارة السابقة إنما تكون فقط حال اعتبار أن الأمر بالترتيل في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ متعلقاً بقيام الليل، أي رتل قراءتك في القيام، وهو أحد احتمالين ذكرهما الطاهر بن عاشور[(٤)].

---

(١) ينظر: المعجزة الكبرى القرآن، لأبي زهرة (ص: ١٨).

(٢) ينظر: تاج العروس (فصل الراء) (٢٦٢/١٤).

(٣) الثغر هنا يحتمل أنه يكون الفم، ويحتمل أن يكون ما يَلِي دارَ الحَرْبِ، أو موضِع المَخافَةِ من فُرُوجِ البلدان. ينظر: تاج العروس (فصل الثاء)، (١٤٦/٦).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦٠/٢٩). ولربما أشارت هذه الفاصلة إلى أهمية أن يحرص القارئ على أن يكون في جانب وناحية وقت القراءة؛ ليتمكن من مناجاة ربه بهذه الهيئة من القراءة، كمن يقيم على ثغر من ثغور البلد وهو ليس في حاجة إلى أن يتزود بطعام أو شراب، وليس عنده أي خوف من العطش أو الضياع؛ لأن هذا الثغر كثير الماء، فهو كفيل بأن يكون معه المقيم عليه على حياة. وهذا أخذاً من قولهم: "الرَّتِلِ، ككتِفٍ ... الكثيرُ الماءِ من الثُّغورِ". ينظر: القاموس المحيط: رتل (ص: ١٠٠٣).

١٠- قد يسأل سائل: لماذا لم تأت الفاصلة بمرادف هذه اللفظة، كأن يقال: (وَبَيِّنِ القرآن تبيينا؟ أو: وَاتْلُو القرآن تلاوةً، أو: وَترَسَّلِ في القرآن ترسُّلا، أو ترسيلاً[١]؟

والجواب: لأن في لفظة الترتيل من المعاني اللغوية والبلاغية ما ليس موجودا في غيرها، فمن معانيها:

١-حُسْنُ تَناسُقِ الشيءِ وانْتِظامُه على اسْتِقامَةٍ.

٢- بياض الأسنان وكثرة مائها.

٣- الكثيرُ الماءِ من الثُّغورِ.

٤- الماء البارد.

٥- والفُرْجة بين الأسنان وتنضيدها، وعدم تركيب بعضها على بعض.

٦ - حسن تأليف الكلام وإبانته، والحَسَنُ من الكَلامِ، والطَّيِّبِ من كلِّ شيءٍ.

٨- التمكُّث والترسُّل وعدم العجلة[٢].

أما معنى (تلا فلانٌ الكتاب): قرأَهُ فأَتْبَعَ بعضَ حروفِه بعضاً، مشتقٌ من تلوت الرجل، أي: تبعته[٣].

وليس في (وَبَيِّنِ القرآن تبييناً) معنى التناسق بين الحروف وقت إخراجها والنطق بها، والتثبت فيها، وفَصْل كل حرف من الحرف الذي يجيء بعده، وعدم تركيب بعضها على بعض حتى تبدو كالثغر حسَن التنضيد.

وليست هذه المعاني أيضا في: (وَرَسِّلِ القرآن ترسيلا)، لذلك لم يمكن لأيٍّ من هذه الألفاظ أن تحل محل (ترتيلا)، وتعطي نفس دلالاتها، وتفيد نفس المعاني التي أفادتها. والله أعلم.

---

(١) بإحلال (ترسيلاً) محلّ (تَرَسُّلاً) نحو قوله تعالى: (وتبتّل إليه تبتيلا) بإحلال (تبتيلاً) محل (تبَتُّلاً) كما سيأتي.

(٢) ينظر: تاج العروس (فصل الراء) (٢٦٢/١٤).

(٣) ينظر: عمدة الكتاب، لأبي جعفر النحاس (ص: ١٥٦).

فلعل كل هذه المعاني والإشارات السابقة – وغيرها مما لم يهتد إليه الباحث في هذه الفاصلة – هي السرّ في اختيار هذه اللفظة في هذه الفاصلة دون غيرها من ألفاظ ترادفها أو تقترب في المعنى منها.

لأن المعاني في القرآن الكريم يعبَّر عنها بألفاظ لا يُجزي واحد منها في موضعه عن الآخر، فقد أُخْتُير لمعاني القرآن الألفاظُ التي هي أصحّ لتأديتها، وأخصّ بها وأكشف عنها وأتم لها، وأحرى بأن تُكسبها نُبلاً ويظهر فيها مزية.

وقد نُزّلت ألفاظ القرآن وكلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة، فلو نُزِعت كلمة منه، أو أُزيلت عن وجهها، ثم أُدير لسانُ العرب كله على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها، لم يتهيأ ذلك، ولا اتسعت له اللغة بكل مفرداتها، وهذا سِرٌّ من أسرار إعجازه قد أَحَّس به العرب الذين نزل فيهم القرآن، ولو أنهم وجدوا سبيلاً إلى نقد القرآن ومعارضته بنقص كلمة منه، أو أن غيرها أليق منها بالمقام لفعلوا، ولكنهم ما فعلوا؛ لأنهم ما وجدوا ولن يجدوا على مرّ الدهور والعصور[(١)].

المطلب الثاني

فواصل الآيات التي تعالج آثار الوحي، وتحمِلُ النبيَّ ﷺ على ملازمة عبادة الله في الليل والنهار، (وفيه الآيات من ٥– ٧)

❁ الفاصلة الخامسة: (ثقيلا) من قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

جاءت هذه الفاصلة متمكنة في مكانها، مؤتلفة في موضعها، تحمل الكثير من الدلالات والإشارات، من ذلك ما يلي:

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٥٥) ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (ص: ١٢١) بتصرف فيهما. وينظر المحرر الوجيز (٥٢/١).

١ – استعمل الله عز وجل – بحكمته – في هذه الفاصلة لفظةً تحوي الكثير من الدلالات، وأشار بها سبحانه إلى العديد من المعاني، فوصف القول بأنه "ثقيل" وأشار بالثِّقَل إلى تعظيم هذا القول، فهو قولٌ مبجّلٌ معظّمٌ موقَّر له قدرٌ في القلوب، فليس هو بالقول الذي يُستصغَر، وليس هو كلام السفهاء الذي لا يُكترث به، ولا يُؤْبَهُ له[١].

وأشار بالثِّقَل أيضاً إلى رصانة هذا القول، وأنه قولٌ له وزنٌ في صِحتِه وبيانه ونفعه، كما يقال: هذا كلام رَصِينٌ، وهذا قول له وَزْن، إذا كنت تستجيدُه وتعلم أنه قد وقع موقع الحكمة والبيانِ[٢]. فهو لإحكام لفظه وقوة معانيه أُطلق عليه "ثقيل"، بمعنى راجحٌ على ما عَدَاه لفظاً ومعنى؛ لأنّ الراجح من شأنه ذلك، فتُجُوِّز به عنه[٣].

وهذا الثِّقَل في الدارين، فهو في الآخرة ثقيل في المـيزان مع خفتـه على لسان القارئين[٤]؛ لأنه كلام رب العالمين، وكونه ثقيل في الميزان يعطي إشارة إلى أهمية وضرورة العمل بهذا القول الذي سيُلقَى إلى النبيّﷺ[٥].

وهو أيضاً في الدنيا ثقيل على المنافقين والكافرين بإعجازه ووعيده، إضافة إلى ما فيه من الاحتجاج عليهم، والبيان لضلالتهم، وسب آلهتهم، وإبطال أديانهم وأقوالهم، والكشف عما حرَّفه أهل الكتاب[٦].

أو أنه عند نزوله على النبيّ ﷺ يكون فيه ثِقَلٌ عليه لا يقدر على الحركة حتى ينجلي عنه، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ: "كَانَ إِذَا أُوحِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ عَلَى

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة (٢٧٢/١٠). وقد يكون (ثقيل) هنا بمعنى كريم، مأخوذ من قولهم: فلان ثقيل عليّ، أي: كريم عليّ، قاله السدي. النكت والعيون (١٢٦/٦، ١٢٧)، الجامع لأحكام القرآن (٣٨/١٩).

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢٤٠/٥).

(٣) حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي (٢٦٣/٨).

(٤) ينظر: بحر العلوم (٣/ ٥٠٩).

(٥) ينظر: البحر المحيط (١٠/ ٣١٤).

(٦) ينظر: بحر العلوم (٥٠٩/٣) الكشف والبيان (٤٨١/٢٧)، مفاتيح الغيب (٦٨٤/٣٠)، الجامع لأحكام القرآن (٣٨/١٩)، البحر المحيط (٣١٤/١٠).

نَاقَتِهِ وَضَعَتْ جِرَانَهَا [أي: باطن عُنقها]، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكْ حتى يسرَّى عنه [أي: يذهب عنه]، وَتَلَتْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[(١)].

أو "ثقيل" في الدنيا بمعنى عظيم وجليل وذو قدر، وفي اللغة ما يؤيد ذلك، حيث يستعمل الثَّقَلُ في كلُّ شيءٍ خطيرٍ نفيسٍ مَصونٍ له قَدْرٌ ووَزْنٌ[(٢)].

٢ – هذا الثِّقَلُ المستعمل في هذه الفاصلة فيه إشارة كذلك إلى أن معاني وأحكام هذا الكتاب الذي سيُلقَى عليك يا محمد (ﷺ) يَثْقُلُ العمل بها؛ وثِقَلُه بما اشتمل عليه من تكاليفَ شاقّة على المكلفين، كالجهاد ومداومة الأعمال الصالحة؛ لأن الحلال والحرام، والأمر والنهي، والحدود وكثير مما أمر الله به أن يعمل، أو نهى عنه أن يجتنب، لا يؤديه أحد إلا بتكلّف ما يَثْقُل عليه[(٣)]؛ ليكون النبيُّ ﷺ على بينة من أول الأمر بأن الأمر جادّ، وأن هذا الدين يحتاج إلى أقوياء العزيمة والدين وأصحاب الهمم العالية، ولأجل شحْذِ همة النبيﷺ وتقوية عزيمته أُمِر في مطلع هذه السورة بقيام الليل؛ فهذا القيام من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن؛ باعتبار أنّ الليل هو وقت السُّبات والراحة والهدوء، فلا بُدّ لمن قامَهُ وأحياه من مضادّة لطبعه، ومجاهدة لنفسه[(٤)].

٣ – في هذه الفاصلة وُصِفَ "القَوْلُ" "بالثِّقَل"، دون ذِكْر أنه "ثقيلٌ" على مَنْ؟

فيجوز صَرْفُ الثِّقَلُ إلى قيام الليل؛ لأنه في سياقه، وآيةُ هذه الفاصلة جاءت معترضة بين كلامين عن قيام الليل، فائدة هذا الاعتراض تسهيل التكليف عليه

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، (٥٤٩/٢)، حديث رقم: ٣٨٦٥، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه". وينظر: جامع البيان للطبري (٦٨١/٢٣)، بحر العلوم (٥٠٩/٣)، النكت والعيون (٦/ ١٢٦، ١٢٧).

(٢) ينظر: تاج العروس (فصل الثاء) (٨٥/١٤، ٨٦). وهو اختيار الرازي. مفاتيح الغيب (٦٨٣/٣٠).

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢٤٠/٥)، بحر العلوم (٥٠٩/٣)، الكشاف (٦٣٨/٤)، البحر المحيط (٣١٤/١٠).

(٤) ينظر: الكشاف (٦٣٨/٤).

بالتهجد[(١)]، والمعنى: سنلقي عليك بافتراض صلاة الليل قولاً ثقيلاً يَثْقُل حَمْله؛ لأن الليل للمنام، فمن أُمِرَ بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بحمل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان، فهو أمر يثقل على العبد، فناسَبَ الاعتراض بهذه الآية، قيام الليل لمشقته[(٢)].

أو "إنه سيَرِدُ عليك في الوحي المنزّل عليك تكاليفَ شاقةً هذا بالنسبة إليها سَهْلٌ، فلا تُبَال بهذه المشقة، وتمرَّن بها لما بعدها، والتهجد ثقيل على النفس؛ لأنها تألف نوم الليل والهدوء فيه، فبينه وبين القرآن مناسبة في ثِقَلِ كل منهما على النفوس"[(٣)].

ويجوز أن يكون الثِّقَلُ راجعاً إلى الكفرة والمنافقين، ويكون القولُ الثقيلُ هنا هو الأمر بالجهاد؛ لأنه اشتد على الفريقين جميعاً، وأيسَ الكفار من المسلمين أن يعودوا إلى ملتهم؛ قال الله تعالى: ﴿**ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ**﴾[المائدة:٣]، وتخلّف المنافقون عن القتال مع رسول الله ﷺ وثقل ذلك عليهم، فجائز أن يكون قوله ﴿ثَقِيلًا﴾؛ أي: على الكفرة والمنافقين، وكذا على أهل الكبائر ثقيل أيضا؛ لأنهم لم يتمنوا أن ينزل عليهم الكتاب، وأما على المسلمين فليس بثقيل، بل هو كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ**﴾[القمر: ١٧ وغيرها].

ويجوز أن يصرف ذلك إلى رسول الله ﷺ؛ لأنه أُمِرَ بتبليغ الرسالة إلى الجبابرة وإلى الخلق كافة، وفي القيام بالتبليغ إلى الجبابرة مخاطرة بالروح والجسد، والقيام بما فيه مخاطرة بالروح والجسد أمر ثقيل صعب جدًّا.

ويجوز أن يكون هذا منصرفاً إلى اتباع رسول الله ﷺ وأنصاره؛ فيكون ثِقَلُه من الوجه الذي كُلّفوا القيام بفرائضه، وحفظ حدوده، وتحليل حلاله، واجتناب حرامه[(٤)].

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢٥٥/٥).

(٢) ينظر: تأويلات أهل السنة (٢٧٠/١٠)، الجامع لأحكام القرآن (٣٨/١٩)، التسهيل لعلوم التنزيل (٤٢٣/٢).

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٢٦٣/٨)، روح المعاني (١٠٤/٢٩).

(٤) تأويلات أهل السنة (٢٧٠/١٠) بتصرف.

٤ – مجيء الفاصلة (ثَقِيلًا) هنا على زِنة (فعيل)[١] وهي صفةٌ مشبّهةٌ[٢] تعني دوام وثبوت هذا المعنى "الثِّقَل" لصاحبه "القول" في كل الأزمنة ثبوتاً عاماً، فهو متحقق الوقوع في الأزمنة الثلاثة[٣].

٥ – يجوز أن يكون الثِّقَلُ في هذه الفاصلة على بابه، فهو ضد الخفيف، وعليه فالمعنى: قولاً ثقيلًا: أي ليس بالخفيف ولا السَّفْساف؛ لأنَّه كلام ربنا تبارك وتعالى، وهو قول الفراء[٤].

وقد جاء في الصحاح، والقاموس المحيط، وغيرهما[٥] أن "الثِّقَلُ: ضِدُّ الخِفَّةِ، وأَصْلُه في الأَجْسامِ، ثم يقالُ في المَعَاني"، فبما أن الثقيل ضد الخفيف، فالثقيل ثابتٌ؛ لثبوته في محلّه، وعليه فالمعنى: قولا ثقيلا: أي أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبداً، وفي هذا إشارة وكناية عن بقاء القرآن على وجه الدهر؛ لأن الثقيل من شأنه أن يبقى في مكانه ولا يزول[٦].

وهذه الفاصلة نزلت مع آيتها في مطلع الدعوة، وبعد تكليف الله تعالى رسولَه ﷺ بالبلاغ فهو مطلوب منه أن يثبُتَ، وهذا الثبات على الدين مطلوبٌ أيضاً من أتباعه

---

(١) وأيضاً في فواصل الآيات: ٢، ٣، ٧، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٦، ١٧، ١٩، ٢٠.

(٢) وهي ما اشتقّ من فعل لازم لمن قام به على معنى الثبوت. شرح الرضي على الكافية لابن الحاجب (٤٣١/٣). وينظر: شرح التسهيل لابن مالك (٣/ ٨٩)، شذا العرف في فن الصرف (ص: ٦٣). ويجوز أن تكون "فعيل" في هذه الفاصلة وفي فواصل الآيات: ٢، ٣، ٧، ٩،١٠، ١١، ١٦، ٢٠) صيغة مبالغة، والمبالغة تكون في كل "فعيل" معدول عن فاعل. دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٤٩/٧)، وممن صرّح بأنها صفة مشبهة صاحب التحرير والتنوير (٢٧٤/٢٩).

(٣) فكلمة: "ثقيلا" في هذه الفاصلة تدل على: ١- معنى مجرد "أي: على وصف، أو: صفة"؛ هو: "الثِّقَلُ". ٢- وعلى موصوف به "القول". ٣- وعلى ثبوت ذلك المعنى له وتحققه ثبوتًا زمنيًا عامًا في الماضي والحاضر، والمستقبل. ٤- وعلى دوام الملازمة، أو ما يشبه الدوام. فكل هذه الأمور مجتمعة مقصودة ومرادة في هذه الفاصلة، وما سيأتي على صيغة "فعيل" من فواصل هذه السورة. ينظر: النحو الوافي (٢٨٣/٣).

(٤) ينظر: معاني القرآن للفراء (٣/ ١٩٧).

(٥) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (ثقل) (١٦٤٧/٤)، القاموس المحيط(فصل الثاء) (ص: ٩٧٢)، تاج العروس(فصل الثاء) (٨٥/١٤).

(٦) ينظر: النكت والعيون (٦/ ١٢٦، ١٢٧)، مفاتيح الغيب (٦٨٤/٣٠)، البحر المحيط (٣١٤/١٠).

اقتداءً به في العمل والأمر والنهي، وهذا الثبات في غاية الصعوبة، ولن يتحقق إلا بإعانة الله تعالى عليه، فكان ختام هذه الآية بهذه الفاصلة التي تشير إلى أن هذا القول وهذا الدين يتطلب الثبات، وعُبِّر عنه بالثِّقَل بجامع أن كلا منهما مستقرٌ في مكانه لا يتزحزح ولا يزول[(١)].

٦ – أشار الله عز وجل بهذه الفاصلة إلى ما يحويه القرآن من العلوم والمعاني التي لا مُنتهَى لها، فالثِّقَلُ هنا كناية عن أن العقل الواحد لا يفي بإدراك فوائده والإحاطة بمعانيه بالكلية من كثرتها وعظمتها، فالمتكلمون غاصوا في بحار معقولاته، والفقهاء أقبلوا على البحث عن أحكامه، وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعاني، ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه بفوائد ما وصل إليها المتقدمون، فعُلِم من هذا أن الإنسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله، فصار كالحمل الثقيل الذي يعجز الخلق عن حمله[(٢)].

فالثِّقَلُ الموصوف به القول ثِقَلٌ مجازيٌّ، مستعار لصعوبة حفظه؛ لاشتماله على معانٍ ليست من معتاد ما يجول في مدارك قومه، واشتماله على معانٍ وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر، وذلك بكمال هديه ووفرة معانيه، فيكون حفظ ذلك القول عسيراً على الرسول الأميّ ﷺ تنوء الطاقة عن تلقّيه[(٣)]، لولا أن وعد الله تعالى بتيسيره وعدم نسيانه كما في سور: طه والقيامة والأعلى.

٧ – ربما كانت هذه الفاصلة إشارة إلى اشتمال القرآن على المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ وغيرها، والفرق بين هذه الأقسام مما لا يقدر عليه إلا العلماء الراسخون، المحيطون بجميع العلوم العقلية والحكمية، فلما كان كذلك لا جرم كانت الإحاطة به ثقيلة على أكثر الخلق[(٤)]. والله أعلم.

٨ – تشير هذه الفاصلة إلى كمال القرآن، وأنه لن يترك شيئاً من أمر الآخرة والأولى، والأولين والآخرين إلا وسيكون فيه ذكر له، أو إشارة إليه كما قال تعالى: ﴿**مَّا**

---

(١) يراجع: نظم الدرر (٢٠٦/٨).
(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٦٨٤/٣٠).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦١).
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب (٦٨٤/٣٠).

﴿فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، كما تشير إلى اكتماله، وأنه سيتمّ أمره ويظهر على كل من ناوأه وعاداه، وهذه الإشارة مستنبطة من بعض استعمالات العرب لمادة (ثقل)، حيث ورد عنهم قولهم: "دينارٌ ثَاقِلٌ أي كامِلٌ لا ينْقُصُ، ودَنانيرُ ثَواقِلُ كَوامِلُ، أو رَوَاجِحُ"(١)، فيستفاد من هذا استعمالهم بعض مشتقات هذه المادة في الدلالة على الكمال وعدم النقصان، كما ورد عنهم استعمال بعض مشتقاتها في المدح، وبه قال الراغبُ واستشهد بقول الشاعر:

تَخِفُّ الأَرضَ أما زِلتَ عنها ∴ وتبقَى ما بقيتَ بها ثقيلا
حَلَلْتَ بمُسْتَقَرّ العـزِّ منـها ∴ فتمنعُ جانِبَيْها أَنْ يميلا(٢)

وفي هذا إشارة إلى تفضيل القرآن على غيره من الكتب، فالثقل هنا إشارة إلى هذا التفضيل كما سُمِيَ الثَّقَلان: الإنس والجن، بهذا الاسم لتفضيلهما على غيرهما بالتمييز الذي فيهما على سائرِ الحيوانِ، وكما جاء في حديث النبيّﷺ : «إِنِّي تارِكٌ فيكُم الثَّقَلَيْنِ كِتابَ اللَّهِ وعِتْرَتِي» سمَّاهما ثَقَلَيْن إعْظاماً لقَدْرِهما، وتَفْخِيماً لهما(٣).

٩ – جاء في اللغة أن "الثَّقَلُ محرَّكَةً: مَتاعُ المُسافِرِ وحَشَمُه"(٤)، فلعلّ اختيار هذه اللفظة في هذه الفاصلة إشارة إلى أن المسافر إلى الله تعالى والسائرَ إليه لابد له في رحلته من زاد ومتاع، وبدونهما لن يبلغ مراده، وهذا القرآن هو الزاد الذي سيبلّغ المرءُ به بُغيته، ويوصله إلى نهاية رحلته بأمان. والله أعلم.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) ينظر: تاج العروس(فصل الثاء) (٨٦/١٤).
(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ١٧٤. والبيتان من الوافر، وهما بلا نسبة فيما رجعت إليه من مصادر. وينظر: المعجم المفصل في شواهد العربية (١٤٤/٦).
(٣) ينظر: تاج العروس(فصل الثاء) (٨٥/١٤). والحديث في مسند أحمد (٢١١/١٧)، برقم: ١١١٣١.
(٤) ينظر: القاموس المحيط (فصل الثاء) (ص: ٩٧٢).

❁ الفاصلة السادسة:(قيلاً) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦﴾.

١ – "القِيلُ" في هذه الفاصلة بمعنى "القَوْل"، قال السيوطيُّ: "قيلاً، وقولاً بمعنى واحد، ومنه: ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾"[(١)].

وقد بين الله تعالى في هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار، وأنّ الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن أعظم للأجر، وأجلب للثواب، وأكمل موافقةً للقلب مع اللسان، والخواطر الليلية إلى المكاشفات الروحانية فيها أتم، ... وفي الجملة عبادة الليل أشدّ نشاطاً، وأتم إخلاصاً، وأكثر بركة، وأبلغ في الثواب من عبادة النهار[(٢)].

وللمفسرين أقوال كثيرةٌ في معنى هذه الفاصلة، فقيل: ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾: أي أشد استقامة واستمراراً على الصواب، أي: أخلص للقول وأسمع له، وأعظم سداداً من جهة القيل في فهمه ووقعه في القلوب؛ لفراغ البال بالليل، وحضور القلب، وهدوء الأصوات، وانقطاع الحركات، والسكون الذي يلُفُّ الأرجاء، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه، ولا يكون دون تسمُّعه وتفهُّمه حائل.

وقال الحسن: أبلغ في الخير وأمعن في العدل. وقال قتادة ومجاهد: أصوب للقراءة وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم لرياقة الليل بهدوء الأصوات وتجلّي الرب سبحانه بحصول البركات، وأخلص من الرياء.

وقال عكرمة: أتم نشاطاً وأتم إخلاصاً، وأكثر بركة.

وقال الكلبي: أبين قولاً بالقرآن.

وقال زيد بن أسلم: أجدر أن يتفقّه فيها القارئ فيما يقرأ.

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن (١٧٧/٣).

(٢) ينظر: معالم التنزيل (١٦٨/٥)، مفاتيح الغيب (٦٨٤/٣٠، ٦٨٥).

وقيل: أبلغ في الخير، وأمنع من العدوّ. وقيل: أعجل إجابةً للدعاء. وقيل: ﴿**وَأَقْوَمُ قِيلًا**﴾ أي: أصح مما تخرجه الأفكار بالنهار، لخلو السمع والبصر عن الاشتغال. وقيل: أصدقُ في التلاوة وأجدرُ ألَّا يُلبِس عليك الشيطانُ تلاوتَك[(١)].

ولعل مجيء الفاصلة على هذه الصيغة التي تشبه الفعل الذي لم يُسَم فاعله[(٢)] لتحتمل اللفظة كل ما تقدم من معانٍ.

٢- هذه الفاصلة تعليلٌ لتخصيص زمن الليل بالقيام فيه، فهي مرتبطة بجملة ﴿**قُمِ ٱلَّيۡلَ**﴾[المزمل: ٢]، أي قم الليل لأن ناشئته أشد وطأ وأقوم قيلا، والمعنى: أن في قيام الليل تزكية وتصفية لسرك، وارتقاء بك إلى المراقي الملكية.

والـ"أقوم": الأفضل في التَّقَوِّي الذي هو عدمُ الاعوجاج والالتواء، واستُعير ﴿**أَقْوَمُ**﴾ للأفضل الأنفع.

و﴿**قِيلًا**﴾: أي قولاً كما تقدم، وأريد به قراءة القرآن لتقدم قوله: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾ [المزمل: ٥]. والمعنى: أن صلاة الليل أعون على تذكر القرآن والسلامة من نسيان بعض الآيات، وأعون على المزيد من التدبر.

أو: ﴿**وَأَقْوَمُ قِيلًا**﴾ أدنى من أن يفقهوا القرآن، أو: أحفظ للقراءة، وغير ذلك مما تقدم ذكره من أقوال المفسرين في معناها[(٣)].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٥٠/٥)، النكت والعيون (١٢٧/٦)، زاد المسير (٣٥٤/٤)، غرائب التفسير (١٢٦٧/٢)، مفاتيح الغيب (٦٨٤/٣٠، ٦٨٥)، تفسير العز بن عبد السلام (٣٨٠/٣)، الجامع لأحكام القرآن (٤٠/١٩، ٤١)، البحر المحيط (٣١٥/١٠)، السراج المنير (٤١٦/٤).

(٢) حيث إن الفعل المبني لما لم يُسم فاعله من (قال) هو (قِيلَ)، فهو على نفس الوزن والصيغة لهذه الفاصلة، غير أن الأول فِعْلٌ، والثاني (الفاصلة) اسم، أو مصدر. ينظر: تاج العروس (فصل القاف)(٦٣٨/١٥).

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري (٦٨٥/٢٣)، النكت والعيون(١٢٧/٦)، التحرير والتنوير (٢٦٢/٢٩، ٢٦٣). وقراءة جمهور العشرة ﴿**وَطْئًا**﴾ من الـــوطء بالأقدام؛ وتأويله: أنه أشـد على البـــدن وأصعب؛ لأن المرء قد اعتاد التقلب والانتشار في الأرض بالنهار، ولم يَعْتَدْ ذلك بالليل، بل اعتاد الراحة فيه، فإذا كُلِّف القيام والانتصاب برجليه في الوقت الذي لم يعتد فيه القيام، كان ذلك أشد عليه وأصعب على بدنه، ولأن المرء بالنهار ليس ينتصب قائما في مكان واحد، فيمكث فيه كذلك؛ بل ينتقل من=

٣- الفواصل في السور القرآنية قد تتماثل، وقد تتقارب، وسورة المزمل من القسم الثاني، وهذه الفاصلة﴿قِيلًا﴾ على زنة فِعْل، والفاصلتان السابقة واللاحقة ﴿ثَقِيلًا﴾، ﴿طَوِيلًا﴾ على زنة فعيل، وأغلب فواصل هذه السورة جاء على هذا الوزن (فعيل).

فلعل استبدال "فعيل" بـ"فِعْل" هنا سببه التنوع الصوتي، وتحقيق القيم الجمالية الصوتية، إضافة إلى المعنى الدلالي في الفاصلة نفسها، إذ كل فاصلة تُعَدُّ وسيلة حَبْك في النص القرآني، وسيلة إقناع عقلي، وسيلة تدليل واستدلال، فهي وسيلة تحقيق نوع من الإقناع والتدليل والتعليل المناسب لصدور الآيات، ومن ثَمَ يأتي التنوع بين الصيغ المتعددة داخل السورة الواحدة.

وهذا الجانب الدلالي وإن كان هو الأصل في الفواصل، لكن الجانب الآخر وهو تحقيق الانسجام الصوتي، والبحث عن القيم الجمالية الصوتية مقصود ومعتبر أيضاً، فالقرآن الكريم يراعي الفاصلة (أو ما كان يسمى قديما بالسجع) وفق النظرية البلاغية القرآنية، والفاصلة هي كالسجع قديما، والسجع كان عامل تغذية مهم جداً لأبعاد الشخصية العربية، فالشخصية العربية لها سمات، وقد استقر الأسلوب العربي منذ فترة طويلة على فكرة ما به يتحقق الانجذاب والتآلف والترابط والشعور بالوحدة، وهذا انعكس على الأساليب، ولذلك بدت الأسجاع والفواصل تقنية أسلوبية ثابتة، تحقق للعربي قدراً من اليقظة، وقدراً من التنبُّهِ، وقدراً من الترابط الكلامي، وقدراً من المتعة واللذة الجمالية في الكلام.

إذن التنوع بين صيغة فعيل وفِعْل هنا، أو بين فعيل وفعول، أو مفعول -كما سيأتي[(١)]- سببه الحرص على الانسجام، وتحقيق ما به انسجام الشخصية العربية، وهذه منها جزء ثابت

=موضع إلى موضع، ولو كلف الانتصاب في مكان اشتد عليه ذلك، ولحقه الكلال والعناء من ذلك. أو ﴿وَطْئًا﴾ بمعنى أبلغ في القيامِ وأبين في القول، أو: أشد وطأ أغلظ على الإنسانِ من القيام بالنهار.

وقراءة ابن عامر وأبو عمرو (وِطَاءً) من المواطأة، وهي الموافقة، أي: موافق للسمع والبصر والفؤاد؛ لأن القلب يكون أفرغ بالليالي عن الأشغال التي تحول المرء عن الوصول إلى حقيقة درك معاني الأشياء، وكذلك السمع والبصر يكون أحفظ للقرآن، وأشد استدراكا لمعانيه، والمعنى: أن صلاة الليل أوفق بالمصلي بين اللسان والقلب، أي بين النطق بالألفاظ وتفهُّم معانيها للهدوء الذي يحصل في الليل وانقطاع الشواغل، وبحاصل هذا فسر مجاهد. ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢٤٠/٥)، التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(١) تحولت الصيغة من فعيل إلى فِعل في فاصلتين، (قِيلاً) هنا، وفي الآية ١٧ (شيباً)، وتحولت من فعيل إلى فعول في الفاصلة (١٥)، ومن فعيل إلى مفعول في الفاصلة ١٨(مفعولاً).

وجزء متنوع متغير، وتناغم الثابت مع المتنوع المتغير يولّد طرداً للرتابة، وطرداً للملل، أما المزاوجة بين الثابت والمتغير المتنوع فيولّد الانسجام والمتعة الجمالية[١].

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

❁ الفاصلة السابعة: (طويلا) من قوله تعالى:﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧﴾.

جاءت هذه الفاصلة ﴿طَوِيلًا﴾ متمكنة في مكانها، مؤتلفة في موضعها مع ما قبلها وما بعدها، دالةً على معاني لا يمكن لغيرها من الألفاظ أن يدل عليها، وبيان ذلك من خلال ما يلي:

١- يَلْمَحُ الباحثُ في هذه الفاصلة إشارةً إلى ضرورة اغتنام الليل؛ لأن فيه الخلوة بالله تعالى، وفيه يتواطأ قلب المصلي ولسانه وسمعه على التفهم للقرآن، وهذا هو المفيد النافع للمرءِ في حياته الآخرة، وهذه الحياة هي الأبقى وهي الأخير، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]، وأن وقت الليل قصير مهما ظنه الظانُّ طويلا، أما النهار ففيه متسع لعمل أي شي، فقد عبر الله عن النهار بالسَّبْح، والسَّبْحُ أو السباحة غالبا ما تكون في مكان متسع ليس فيه ما يعوق حركة السابح، أو جَوَلَانَهُ على وجه الماء.

ثم إنّ وَصْف السَّبْحِ بالطويل في الفاصلة يشير إلى كأنها سباحة في محيط أو بحر أو نهر طويل، ففيه استعارة عن التصرف السَّهْل المتَّسعِ الذي يُشْبهُ حركةَ السَّابِحِ في الماء[٢]، وفيه استعارة عن الامتداد والاتساع[٣]، ويضاد هذا الليلُ، فليس هو كالنهار في امتداده وطوله حقيقةً، وإن بدا للناظر أنه طويل، وهذا لا يناقض الأثر: "الشتاء ربيع

---

(١) أفدتُ هذا من كلام أ.د. خالد فهمي، أستاذ اللغويات بكلية الآداب- جامعة المنوفية عبر حوار مع فضيلته.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٤).

(٣) وهذا المعنى (الامتداد والاتساع) هو أصل وحقيقة المعنى الموجود في هذه المادة: (طَوَلَ)، قال ابن فارس: " الطَّاءُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى فَضْلٍ وَامْتِدَادٍ فِي الشَّيْءِ... وَهَذَا قِيَاسٌ مُطَّرِدٌ فِي كُلِّ مَا أَشْبَهَ ذَلِك". مقاييس اللغة (طول) (٣/٤٣٣).

المؤمن، قصُر نهاره فصامه، وطال ليله فقامه"[(١)]؛ لأن هذا طول حسيّ زمني أما قِصَر الليل المضاد للنهار الطويل فهو قِصر وجداني روحيّ يشعر به القائمون بين يدي الله بحب وإخلاص، فالمقرّبون يتلذذون في ليلهم بقربهم من الله تعالى حتى إنّ كثيرا منهم يتمنى ألا يؤذَّن للفجر من لذة ما يشعر في مناجاته لربه.

هذا الشعور الوجدانيُّ بالقرب يهوّن أيَّ طول زمنيٍّ في الليل حتى يبدو بأنه قصير وإن كان طويلا، وهذه إشارة لنقل تفكير المرء إلى الأمور العلوية والعلائق الربانية، وأن يسمو بروحه لتتعلق بالله تعالى، هذا التعلق والقرب يجعل الليل قصيرا، وبالتالي ينبغي اغتنامه، بخلاف النهار ففيه طول وسبح طويل.

فهذه الآية وهذه الفاصلة تُلفت انتباه النبيﷺ والأمة من بعده إلى أن الليل أهمّ من النهار، فينبغي اغتنامه في تقوية العلاقة مع الله[(٢)]؛ لأن الليل يكون المرء فيه خالي البال، صافي الذهن، تهدأ فيه الأصوات، وتنقطع فيه الحركات، بخلاف النهار الذي يكون فيه النبي ﷺ منشغلا بتبليغ الرسالة وضبط أمور المسلمين، ومجادلة المشركين، ودفع كيد الكائدين، بالرائح والجائي والكسب والمعيشة وأحواله وأحوال الناس.

ويشهد لما سبق من كون النهار محلاً لانشغال البال، وتفرّق القلب، بخلاف الليل، قراءة ابن يعمر وعكرمة وابن أبي عبلة "سبخاً" بالخاء المعجمة، أي تفرُّقُ قلبٍ بالشواغل، مستعار من سَبْخِ الصوف، وهو نفْشه ونشر أجزائه[(٣)].

وعلى القول بأن "التسبيخ" في القراءة الشاذة بمعنى التخفيف يكون المعنى- والله أعلم-: أن تكاليف النهار أخف من تكاليف الليل، وتكون هنا إشارة إلى أنه ينبغي أن يشدّد على نفسه بالليل ويأخذها بالعزيمة.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٤٥/١٨)، برقم: ١١٧١٦، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٢٣/٥)، برقم: ٣٦٥٥، وحسّنه البعض، والصواب أنه موقوف. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٥٤٦/٣)، كشف الخفاء (٥/٢).

(٢) ينظر: روح المعاني (٢٩/ ١٠٦).

(٣) ينظر: الكشاف (٤/ ٦٣٩)، روح المعاني (١٠٦/٢٩). وتنظر هذه القراءة الشاذة أيضاً في: جامع البيان (٦٨٧/٢٣)، معاني القرآن وإعرابه (٢٤١/٥)، زاد المسير (٣٥٥/٤)، البحر المحيط (٣١٥/١٠).

ويؤكد ما تقدم أيضاً من الحثّ على اغتنام أوقات الليل- إذ هي أغلى وأنفس من يضيع منها شيء، وأن أوقات النهار قد يكون فيها متصرفاً وفضلا وزيادة- وَصْفُ السَّبْحِ بالطُّول في هذه الفاصلة، فمن معاني (طَوَلَ) في اللغة: الفَضْلُ، والسَّعَةُ، قال ابن فارس: "الطَّاءُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى فَضْلٍ وَامْتِدَادٍ فِي الشَّيْءِ... وَهَذَا قِيَاسٌ مُطَّرِدٌ فِي كُلِّ مَا أَشْبَهَ ذَلِك"(١).

وقال الزبيدي: "وطَوّل له تَطْويلاً، أي أمهله ... والطَّوْلُ والطائلُ والطائلَةُ: الفَضْلُ، والقُدْرَةُ، والغِنَى والسَّعَةُ"(٢). فوصف السبح بالطول، وهو يكون في النهار يفيد أن فيه سعةً وفضلاً بخلاف الليل. وفي هذا الوصف [وَصْفُ السَّبْحِ بِـ"طَوِيلاً"] في هذه الآية مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الطويل هو مكان السَّبْحِ وهو الماءُ المسبوح فيه، وبعد هذا ففي قوله "طَوِيلاً" ترشيحٌ(٣)؛ لاستعارة السَّبْحِ للعمل في النهار(٤).

ثم إن مجيء هذه الفاصلة لصفة لموصوفين في آن واحد (هما "السَّبْحُ" على القراءة المتواترة، و"السَّبْخُ" على القراءة الشاذة) تفرُّدٌ وإعجاز.

٢ – في هذه الفاصلة ﴿طَوِيلًا﴾ معنى الامتنان من الله تعالى على نبيه ﷺ وعلى أمته، حيث كلّف ﷻ رسولَه ﷺ بمشقة قيام الليل فقط بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، وبقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾، ولم يكلّفه باستيعاب الليل والنهار معاً بالقيام والعبادة(٥)، ومعنى الامتنان المشار إليه هنا مأخوذ من بعض المعاني اللغوية لهذه اللفظة، فمن معانيها: الامتنان، فقد جاء عن العرب: "تطوَّلَ عليهم، وطال

(١) مقاييس اللغة: (طول)، (٣/ ٤٣٣).

(٢) تاج العروس (فصل الطاء)(٤٤٦/١٥، ٤٤٧). والمعنى المحوري لهذه المادة (طول): تَمَدُّد الشيء أو امتداده متماسكًا". المعجم الاشتقاقي المؤصل (١٣٤٣/٣).

(٣) التَّرشِيح هو إيرادُ ما يُناسب المُشَبَّه به تقويةً لأمر الاستعارةِ وتربيةً له. ينظر: تحقيق الفوائد الغياثية، لمحمد بن يوسف الكرماني (٧٥٢/٢). أو: هو أن يأتي المتكلم بكلمة لا تصلح لضرب من المحاسن، حتي يؤتى بلفظة ترشّحها وتؤهلها لذلك، كقول التهامي في مرثيته:

وإذا رجوت المستحيل فإنما ∴ تبني الرجاء على شفير هار

فلولا ذكر الشفير، لما كان في الرجاء تورية برجا البئر، ولكان من رجوت الأمر، لقوله أولًا: وإذا رجوت المستحيل. خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي (٢/ ٢٩٩).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦٥/٢٩).

(٥) ينظر: روح المعاني (٢٩/ ١٠٦).

عليهم": أي امتنّ، وأَصْلُ الطَّوْلِ: المَنُّ والفَضْل، ومنه قوله تعالَى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر:٣]، أَي ذي القُدْرةِ، أو ذي الفَضْلِ والمَنِّ(١).

٣ – في هذه الفاصلة وتلك الجملة تعليل لاختيار الليل لفرض القيام على النبي ﷺ فيه، وفيها تأكيد للمحافظة على قيام الليل؛ لأن النهار لا يغنى غَناءه، حيث يبدو أن موقع هذه الجملة موقع العلة لشيءٍ مما في جملة ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، فيتحصل من المعنى: قم الليل؛ لأن قيامه أشد وقعًا وأرسخ قولًا؛ لأن النهار زمنٌ فيه شغلٌ عظيمٌ لا يترك لك خلوةً بنفسك، وشغْلُ النبي ﷺ في النهار بالدعوة إلى الله، وإبلاغ القرآن، وتعليم الدين، ومحاجّة المشركين، وافتقاد المؤمنين المستضعفين، فعبر عن جميع ذلك بالسبح الطويل(٢).

٤– في هذه الفاصلة وتلك الجملة تلطُّفٌ واعتذار عن تكليف النبي ﷺ بقيام الليل، وفيها إرشادٌ إلى أن النهار ظرفٌ واسعٌ لإيقاع ما عسى أن يكلِّفه قيام الليل من فتورٍ بالنهار لينام بعض النهار، وليقوم بمهامه فيه(٣).

ويجوز أن تكون هذه الفاصلة تعليلًا لما تضمنه قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٣]، أي: إن نقصت من نصف الليل شيئًا لا يفُتْكَ ثواب عمله، فإن لك في النهار متسعًا للقيام والتلاوة، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

والمعنى: إنْ فاتك شيءٌ من صلاة الليل فاخلفه بالنهار، فإنه طويل يسَع فيه ذلك، وقرئت سبخاً، أي بالخاء المعجمة، أي سعة، يقال سبِّخي قطنك، أي وَسِّعيه، والتسبيخ أيضاً التخفيف، يقال: اللهم سبَخْ عنه الحُمَّى: أي خفّفها عنه(٤). وعندئذ يكون في هذه

(١) ينظر: القاموس المحيط (فصل الطاء): (١٠٢٧)، تاج العروس (فصل الطاء)(١٥/ ٤٤٧).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٤).
(٣) ينظر: المصدر السابق.
(٤) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن (٣/٢١٠).

الفاصلة وتلك الجملة القرآنية إشارة إلى أنه ينبغي أن يشدد على نفسه بالليل ويأخذها بالعزيمة.

والظاهرُ أن كل ما سبق يجوز أن يكون مقصودًا؛ لأنه مما تسمح به دلالة كلمة "سبحاً طويلًا"، وهي من بليغ الإيجاز [(١)].

٥ – رُوِيَ عن ثَعْلَب أنه قال: "السبح هُوَ الِاضْطِرَاب"[(٢)]، فإذا وُصِف السَّبْح –وهو يكون في النهار– بالطُّول كان في ذلك إشارةٌ إلى أن الليل هو محل السكون والهدوء والاستقرار، وهذا هو ما يتناسب مع العلاقة مع الخالق جلا وعلا.

(١) ينظر: (التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٤).

(٢) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني (٦/ ٧٩)، فتح القدير (٥/ ٣٨٠).

المطلب الثالث:

فواصل آيات الأمر بالذكر والصبر، (وفيه الآيات من ٨- ١٠)

❁ **الفاصلة الثامنة: (تبتيلاً) في قوله تعالى:﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾.**

١- هذه الفاصلة مأخوذة من البَتَل بمعنى القطع، أو التمييز، أو الإخلاص، ومادةُ (بَتَلَ) في اللغة تَدُلُّ على إبانةِ الشيءِ من غيرِهِ، والمعنى المحوري لها: "تميّز الشيء، أو انفصاله عن أصله، جامعًا لما يجعله وافرًا قائمًا بذاته"[(١)].

"وَالتَّبَتُّلُ: شِدَّةُ الْبَتْلِ، وهو مصدر تَبَتَّلَ القاصر الذي هو مُطَاوع "بتّله" فـ:"تَبَتَّلْ" وهو هنا للمطاوعة المجازية يقصد من صيغتها المبالغة في حصول الفعل، حتى كأنه فعله غيره به فطاوعه.

وَالتَّبَتُّلُ: الانقطاع، وهو هنا انقطاعٌ مجازي، أي تفرُّغُ البالِ والفكرِ إلى ما يرضي الله، فكأنه انقطع عن الناس وانحاز إلى جانب الله فعُدِّيَ بـ: «إلى» الدالة على الانتهاء.

والتبتيل: مصدر "بَتَّلَ" المشدد الذي هو فعلٌ متعدٍّ مثل التقطيع.

وجيء بهذا المصدر عوضًا عن التبَتُّل للإشارة إلى أن حصول التّبَتُّل، أي الانقطاع يقتضي التبتيل، أي القطع. ولما كان التبتيل قائمًا بالمتبتل تعيّن أن تبتيله قطعه نفسه عن غير من تبَتّلَ هو إليه، فالمقطوع عنه هنا هو من عدا الله تعالى، فالجمع بين تبتَّل وتبتيلًا مشيرٌ إلى إراضة النفس على ذلك التبتل.

والمراد بالانقطاع المأمور به انقطاعٌ خاص وهو الانقطاع عن الأعمال التي تمنعه من قيام الليل ومهام النهار في نشر الدعوة، ومحاجة المشركين، ولذلك قيل: وتبتَّلْ إليه، أي إلى الله تعالى.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (بتل)، (١٩٥/١)، مفاتيح الغيب (٦٨٧/٣٠)، تاج العروس (فصل الباء) (٤٠/١٤- ٤٢)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٧٠/١).

ومن أكبر التبتُّلِ إلى الله الانقطاعُ عن الإشراك، وهو معنى الحنيفية، ولذلك عقَّبَ قولَه: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ بقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وخلاصة المعنى: أن النبيﷺ مأمورٌ أن لا تخلو أوقاته عن إقبالٍ على عبادة الله، ومراقبته، والانقطاع للدعوة لدين الحق، وإذ قد كان النبيﷺ من قبلُ غيرَ غافلٍ عن هذا الانقطاع بإرشادٍ من الله كما ألهمه التحنث في غار حراء، ثم بما أفاضه عليه من الوحي والرسالة، فالأمر حينئذ في قوله: "واذكر اسم ربك وتبتل إليه" مرادٌ به الدوام"[(١)].

٢- جمهور المفسرين على أن معنى ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾: أَخْلِصْ إليه إخلاصاً[(٢)]، وهو مأخوذ من قولهم: "بَتَلَ: أَخْلَصَ من رياءٍ وسمْعَةٍ"[(٣)]، فيكون في هذه الفاصلة إشارة إلى ضرورة الإخلاص في ذكر الله وعبادته، وفيها حثٌّ وحضٌّ عليه من أول أيام الدعوة المحمدية، وتأكيد الفعل بالمصدر تأكيد على هذا المعنى، وأن هذا الإخلاص هو سبب النجاة، فلما كان التبتُّل هنا بمعنى الاخلاص جاءت الفاصلة حاضّةً ومؤكِّدةً عليه بالمصدر المأخوذ من غير فِعْله[(٤)]، وفي هذا لَفْتٌ للانتباه، وإرعاء للأسماع، وتنبيهٌ على أهمية هذا الأمر الجلل.

وتحقيق هذا الإخلاص يحتاج إلى جهد ومشقة واجتهاد، والصيغة تعبّر عن الاجتهاد اللازم لتحقيق هذا، وبهذا روي تفسير هذه الفاصلة عن بعض السلف، كالحسن البصري وغيره[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٥، ٢٦٦) بتصرف يسير.

(٢) ينظر: الكشف والبيان (٥٠٤/٢٧)، النكت والعيون (١٢٨/٦)، مفاتيح الغيب (٦٨٧/٣٠).

(٣) تاج العروس (فصل الباء) (٤٠/١٤).

(٤) لأن الأصل في مصدر تبتّلَ: تبتُّلاً، وإنما جيء على زِنة تفعيلاً «تبتيلاً» حملاً على المعنى. ينظر: زاد المسير (٣٥٥/٤).

(٥) ينظر: جامع البيان، للطبري (٦٨٨/٢٣)، الكشف والبيان (٥٠٤/٢٧)، معالم التنزيل للبغوي (١٦٩/٥)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٧١/١).

٣- جاءت هذه الفاصلة على غير المعهود في اللغة في صيغ المصادر، فـ"الواجب لغةً أن يقال: وتبتَّلْ إليه تَبَتُّلاً، أو يقال: بَتِّلْ نفْسَك إليه تَبْتِيلاً، لكنه تعالى لم يذكرهما، واختار هذه العبارة الدقيقة، إشارة إلى أن المقصود بالذات إنما هو التَّبَتُّل، فأما التبتيلُ فهو تصرُّفٌ، والمشتغل بالتصرف لا يكون متبَتِّلاً إلى الله؛ لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعا إلى الله، إلا أنه لا بد أولا من التبتيل حتى يحصل التبَتُّل كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فذكَرَ التبَتُّلَ أولا إشعاراً بأنه المقصود بالذات، وذكَرَ التبتيل ثانياً إشعاراً بأنه لا بد منه، ولكنه مقصود بالعَرَض"[(١)].

٤- في هذه الفاصلة ﴿تَبۡتِيلًا﴾ مبالغة وحضٌّ على المعنى المراد، سواء كان التبتُّلُ بمعنى الانقطاع أو الإخلاص، أو الاجتهاد في العبادة، والمبالغة، حيث إنه لما لم ينفك التبتل -الذي هو لازم- عن التبتيل -الذي هو متعدٍّ- أمكنَ أن يؤتَى بمصدر أحدهما مكان الآخر، فدلّ ذلك على المبالغة، والمعنى: انقطع وجرِّدْ نفسك عما سواه تبتيلاً[(٢)].

٥- هذه الفاصلة فيها إشارة إلى معنى أعمق مما قد يتبادر إلى الذهن مما ذكره المفسرون، وهذا المعنى هو التعلق به وحده لجلاله وكماله وجماله، والانقطاع إليه وحده دون من سواه[(٣)]، وهذا المعنى العميق نبّه عليه الرازي فقال -بعد أن بيّن معنى وأصل التبتُّل في اللغة-: "... واعلم أن معنى الآية فوق ما قاله هؤلاء الظاهريُّون؛ لأن قوله: "وتبتّل" أي انقطع عن كل ما سواه إليه، والمشغول بطلب الآخرة غير متبتِّل إلى الله تعالى، بل تبتُّله إلى الآخرة، والمشغول بعبادة الله متبتِّلٌ إلى العبادة، لا إلى الله، والطالب لمعرفة الله متبتِّلٌ إلى معرفة الله، لا إلى الله، فمن آثر العبادة لنفس العبادة، أو لطلب الثواب، أو ليصير متعبدا كاملا بتلك العبودية للعبودية فهو متبتل إلى غير الله، ومن آثر العرفان فهو متبتل إلى العرفان، ومن آثر العبودية لا للعبودية بل للمعبود، وآثر العرفان

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٨٧)، وحاشية زاده على البيضاوي (٣٧٩/٨). وبهذا يكون لله تعالى سر وحكمة في اختيار (تبتيلا) مكان (تبتُّلاً) لا لمجرد المطابقة لأواخر آيات لسورة كما زعم الطبرسي. ينظر تفسيره (١٢٦/١٠).

(٢) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن، للإيجي (٣٩٦/٤).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٨٧).

لا للعرفان بل للمعروف، فقد خاض لجة الوصول، وهذا مقام لا يشرحه المقال ولا يعبر عنه الخيال، ومن أراده فليكن من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر"[(١)].

٦- يؤخذ من مجموع ما ذكره اللغويون من معاني لمادة (بَتَلَ)[(٢)] أن هذه الفاصلة تفيد أن يكون العبد حال ذكره وعبادته منقطعاً عما سواه، مخلصاً له تعالى، مميِّزاً ذكره وعبادته بإخلاصه وحضور قلبه.

و﴿تَبَتَّلْ﴾ فعلُ أمر من "تبتّلَ"، ومصدره "تبتُّلٌ" على زِنة "تَفَعَّل"، ومن المعاني الصرفية لهذه الصيغة (تفعّلَ): التكلُّف، كتصبّر وتحلّم: تكلَّف الصبر والحلم، والتدريج، كتجرّعت الماء، وتحفَّزت العلم: أي شربت الماء جرْعة بعد أخرى، وحفظت العلم مسألة بعد أخرى.

أما (تبتيل) فهو مصدر (بتّلَ) على زنة (فعَّلَ)، ومن المعاني الصرفية لـ(فَعَّلَ): التعدية، كقوَّمتُ زيدا وقعَّدته، والإزالة، كجَرَّبتُ البعيرَ، وقَذَّيتُ عَينَه، أي: أزلت جَرَبَه، وأزلت عن عينه القَذَى، والتكثير في الفعل، كجَوَّلَ، وطوَّف: أكثر الجَوَلان والطَّوفان، أو في المفعول، كغلَّقَتِ الأبواب، أو فى الفاعل، كموّتَتِ الإبلُ وبرَّكَتْ[(٣)].

فربما كان في الاستعاضة عن مصدر تبَتَّلْ، وهو التفعُّل إلى التفعيل في هذه الفاصلة إشارة إلى أنه ينبغي على العبد أن يأخذ نفسه بالتدريج ويتكلّف في الانقطاع والإخلاص لله تعالى حال ذكره وعبادته حتى تَتَرَوَّضَ نفسُهُ، ويزول رياؤها، ويتصف بالتكثير، فيكون كثير التبتّل، كثير الانقطاع عن الدنيا حال ذكره وعبادته، دائم الإخلاص لله في كل حال.

وقد ألمح إلى بعض ما سبق البقاعيُّ بقوله: "ولما كان الذكر قد يكون مع التعلق بالغير، أعلم أن الذاكر في الحقيقة إنما هو المستغرق فيه سبحانه، وبه يكون تمام العون

---

(١) ينظر: المصدر السابق.

(٢) وهذه المعاني هي: القطع، والانقطاع، والتمييز، والإخلاص. ينظر: مقاييس اللغة (بتل)، (١/١٩٥)، تاج العروس (فصل الباء) (١٤/٤٠- ٤٢)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/٧٠).

(٣) ينظر: الممتع الكبير في التصريف، لابن عصفور (ص: ١٢٩)، شذا العرف (ص: ٣١، ٣٣).

فقال: {وتبتل} أي اجتهد في قطع نفسك عن كل شاغل، والإخلاص في جميع أعمالها بالتدريج قليلاً قليلاً، منتهياً: "إليه"، ولا تزل على ذلك حتى يصير لك ذلك خُلقاً، فتكون نفسك كأنها منقطعة بغير قاطع، ومقطّعة تقطعياً كثيراً بكل قاطع، فيكون التقدير – بما أرشد إليه المصدر ﴿تَبْتِيلًا﴾ وبتَّلها ﴿تَبْتِيلًا﴾، فأعلم بالتأكيد بالمصدر المرشد إلى الجمع بين التفعُّل والتفعيل بشدة الاهتمام وصعوبة المقام، وهو من البَتَل وهو القطع"...فالمراد بهذا هو المراد بكلمة التوحيد المقتضية للإقبال عليه والإعراض عن كل ما سواه، وذلك بملازمة الذكر وخلع الهوى، والآية من الاحتباك[1] وهو ظاهر: ذِكْرُ فعل التبتُّل دليلاً على حذف مصدره، وذِكْرُ مصدر بتَّلَ دليلاً على حذف فعله"[2]. والله أعلم.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

❁ الفاصلة التاسعة: (وكيلا) من قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

جاءت هذه الفاصلة متمكنة في مكانها، مؤتلفة في موضعها مع ما قبلها وما بعدها، دالةً في هذا الموضع على معاني لا يمكن لغيرها من الألفاظ أن يدل عليها، وبيان ذلك من خلال ما يلي:

١- الآياتُ من أول السورة إلى هذه الفاصلة فيها إرشاد من الله تعالى لنبيه ﷺ إلى كيفية معاملته مع ربه ﷻ، وسيأتي بعد هذه الفاصلة عدة آيات فيها إرشاد الله تعالى نبيه إلى

---

(١) الاحتباك: أن يُحذف من الأول ما أُثبت نظيرُه في الثاني، ومن الثاني ما أُثبت نظيرُه في الأول؛ كقوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٤]؛ فلا يعذِّبَهم، وكقوله تعالى: ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ [آل عمران: ١٣]. التعريفات، للجرجاني: ١٢، "الكليات" للكفوي: ٥٧.

(٢) التحرير والتنوير (٢٠٨/٨). والضمير في (إليه) عائد إلى الله عزوجل في قوله قبلها (اسم ربك)، والسياق النحوي في غير القرآن يقتضي أن يكون: "وتبتل تبتُّلاً إليه"، بتأخير الجار والمجرور، ولعل فائدة تقديمه هنا الِاهْتِمَام به، ورِعَايَةِ الْفَاصِلَةِ، ويمكن يكون لإفادة الحصر، أي أن التبتل لا يكون إلا إليه وحده تعالى دون غيره. ويمكن أن يكون الغرض: الاستعجال بذكر المقصود بالتبتل، وهو الله تعالى. أفدتُ ما سبق من التحرير والتنوير (٢٤٠/١، ٢٦/٢).

كيفية معاملته مع الخلق[١]، فناسب ذلك الختام أن تأتي الفاصلة بلفظ جامع لكل معاني التفويض والتسليم، فجاءت هذه الفاصلة ﴿وَكِيلًا﴾.

والوكيل هو الذي تعتمد عليه وتجعله نائباً عنك، سمِّي وَكِيلًا لأن مُوَكِّله قد وَكَل إليه القيامَ بأمره فهو مَوْكُولٌ إليه الأمرُ، وفعيلٌ هنا بمعنى المفعول[٢]. يقال: وَكَلَ حَاجَتَهُ إلى فلانٍ إذا اعتمَدَ عليه في قضائِها وفَوَّضَ إليه تَحصيلَهَا[٣].

٢- قد يأتي بمعنى الكفيل[٤]، بمعنى الضامن الذي يضمن حق وأمر من يلجأ إليه[٥]، ولم تأت الفاصلة (فاتخذه كفيلا)؛ لأن الوَكِيلُ أعمّ، فكلّ كفيل وَكِيلٌ، وليس كلّ وَكِيلٍ كفيلاً[٦].

فـ(وكيلاً) بمعنى ربّاً حفيظاً، كافياً لما وعدك به، قائماً بمصالحك، قاهراً، متفرداً بجميع الأمور، قادراً على جميع المقدور، فاعتمد عليه، وفوّض أمرك إليه تجده خير حفيظ وكافٍ، فهو الذي يحتاج إليه كلُّ شيء، ولا يحتاج هو إلى شيء، وإلا لما كان كافياً[٧]. والمرء إنما يفزع إلى الوكيل؛ ليزيح عن نفسه علله، ويقضي عنه حوائجه، ويقوم عنه في النوائب؛ فكأنه يقول: افزع إلى الله تعالى في نوائبك؛ فيكون هو الذي يزيح عنك العلل، ويقضي عنك الحوائج، ويكون معتمدك في النوائب[٨].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٨٩)، حاشية شيخ زاده على البيضاوي (٣٧٩/٨).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٨٢)، لسان العرب (فصل الواو) (٧٣٦/١١).

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٨٢)، التحرير والتنوير (١٧٠/٤).

(٤) ينظر: النكت والعيون (١٢٩/٦)، الكشاف (٦٤٠/٤)، البحر المديد ١٦٥/٧. وفي لسان العرب (فصل الواو) (٧٣٤/١١): "الوَكِيلُ: هُوَ الْمُقِيمُ الْكَفِيلُ بِأَرزاق الْعِبَادِ".

(٥) ينظر: لسان العرب (فصل الكاف) (٥٩٠/١١).

(٦) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٨٢). ومن معاني "الْوَكِيلُ: الَّذِي يُوكَلُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ، أَيْ يُفَوَّضُ إِلَى تَصَرُّفِهِ، وَمِنْ أَهَمِّ التَّفْوِيضِ أَمْرُ الِانْتِصَارِ لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ النَّبِيﷺ لَمَّا بَلَغَهُ قَوْلُ الْمُشْرِكِينَ فِيهِ اغْتَمَّ لِذَلِكَ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ذَلِكَ سَبَبُ تَزَمُّلِهِ مِنْ مَوْجِدَةِ الْحُزْنِ فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِأَنْ لَا يَعْتَمِدَ إِلَّا عَلَيْهِ، وَهَذَا تَكَفُّلٌ بِالنَّصْرِ، وَلِذَلِكَ عُقِّبَ بِقَوْلِهِ: "وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ". التحرير والتنوير (٢٦٧/٢٩).

(٧) ينظر: نظم الدرر (٣٣٢/٢، ٣٧٧، ٣٣٤/٤).

(٨) ينظر: تأويلات أهل السنة (١٠/ ٢٧٧).

٣- في هذه الفاصلة أمرٌ باتخاذه سبحانه وكيلا بعد نفي الألوهية عن غيره سبحانه، وفي هذا لَفْتٌ إلى أنه تعالى وحده هو الذي ينبغي أن يُتَّخَذ وكيلاً دون مَن سواه؛ لأن جميع من سواه ممكن مُحدَثٌ مُحتاج إلى غيره، فكيف يصلح أن يكون وكيلاً تُوكَلُ إليه الأمور. فالأمر باتخاذه تعالى وكيلا مُسبَّبٌ عن كونه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فهو في قوة النهي عن اتخاذ وكيلٍ غيره، إذ ليس غيره بأهل لاتخاذه وكيلا(١).

"ولو لم يكن في إفراده تعالى بالوكالة إلا أنه يفارق الوكلاء بالعظمة والشرف والرفق من جميع الوجوه، فإن وكيلك من الناس دونك وأنت تتوقع أن يكلمك كثيراً في مصالحك، وربك أعظم العظماء، وهو يأمرك أن تكلمه كثيراً في مصالحك، وتسأله طويلاً. ووكيلك من الناس - إذا حصّل مالَكَ سألك الأجرةَ، وهو سبحانه يوفِّر مالَك ويُعطيك الأجرَ، ووكيلك من الناس يُنفق عليك من مالك، وهو سبحانه يرزقك ويُنفق عليك من ماله، ومن تمسك بهذه الآية عاش حراً كريماً، ومات خالصاً شريفاً، ولقي الله تعالى عبداً صافياً مختاراً تقياً"(٢).

٤- في هذه الفاصلة إشارة إلى أن النبيَّ ﷺ سيُعادَى في دعوته، فعليه أن يطمئن وألا يحزن، فلن تؤثّر هذه العداوة عليه إذا امتثل الأمر فاتخذ اللهَ وكيلا، وفوّض أمره إليه(٣).

والوكالةُ لا تكون إلا فيما يعجز، ففي أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بها إشارة إلى أنه لا بد أن يكون عن هذا القول الثقيل خطوب طوال، وزلازل وأهوال(٤). فهو الوكيل أي الحفيظ.

---

(١) ينظر: حاشية شيخ زاده على البيضاوي (٣٧٩/٨)، التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٧).

(٢) نظم الدرر (٢٠٩/٨).

(٣) المعنى المحوري لمادة (وَكَلَ): "تَرْك أمرٍ، أي تفويض القيام به إلى من فيه الكفاية للقيام به". المعجم الاشتقاقي المؤصل (١٩١٨/٤).

(٤) ينظر: نظم الدرر (٢١٠/٨).

٥- في هذه الفاصلة ملمحٌ جديد أشار إليه الفخر الرازي، فقد أمر الله تعالى في الفاصلة السابقة بالتبتُّل إليه، وهذا "التبتُّل إليه لا يحصل إلا بعد حصول المحبةِ، والمحبةُ لا تليق إلا بالله تعالى، وذلك لأن سبب المحبة إما الكمال وإما التكميل.

أما الكمال فلأنه محبوب لذاته ... فمن لم يحصل في قلبه محبته كان ذلك لعدم علمه بكماله. وأما التكميل فهو أن الجَّواد محبوبٌ، والجوَّادُ المطلق هو الله تعالى، فالمحبوب المطلق هو الله تعالى.

والتبتل المطلق لا يمكن أن يحصل إلا إلى الله تعالى، لأن الكمال المطلق له والتكميل المطلق منه، فوجب أن لا يكون التبتل المطلق إلا إليه. فقوله: ﴿**رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ**﴾ إشارة إلى حالة التكميل، التي هي أول درجات المتبتلين، وقوله: ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ إشارة إلى حالة الكمال، التي هي منتهى درجات المتبتلين، ثم وراء هاتين الحالتين مقام آخر، وهو مقام التفويض، وهو أن يرفع الاختيار من البين، ويفوض الأمر بالكلية إليه، فإن أراد الحقُّ به أن لا يجعله متبتلا رضي بعدم التبتيل، لا من حيث إنه عدم التبتيل، بل من حيث إنه مراد الحق، وهاهنا آخر الدرجات، وقوله: ﴿**فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا**﴾ إشارة إلى هذه الحالة[(١)].

وبهذا يُعلم أن مقام التوكل فوق مقام التبتل؛ لما فيه من رفع الاختيار، وفيه دلالة على غاية الحب له تعالى[(٢)].

٦- لمّا ثبت أنه "لا إله إلا هو" لزم العبد أن يتخذ اللهَ وكيلا، وأن يفوّض كلَّ أموره إليه، وها هنا مقام عظيم، إذ معرفة أنه "لا إله إلا هو" تُوجِب تفويضَ كل الأمور إليه، فدلَّ هذا على أن من لا يفوِّض كلَّ الأمور إليه، فإنه غير عالم بحقيقة لا إله إلا هو، وهذا هو المراد من قوله: "فاتخذه وكيلا"[(٣)].

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٨٧، ٦٨٨).
(٢) ينظر: روح المعاني (٢٩/ ١٠٧).
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب (٦٨٨/٣٠).

❁ **الفاصلة العاشرة: (جميلا) من قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾.**

١- أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ في مطلع هذه الآية أن يصبر على أذى المشركين فيما يقولون من التكذيب والأذى، وأن يهجرهم ويُعرض عنهم، ثم جاءت الفاصلة ﴿جَمِيلٗا﴾ فأرشدته ﷺ إلى كيفية ذلك الهجران، فبيّنتْ له أنه ينبغي أن يعتزلهم اعتزالاً حسناً بلا جزع ولا فُحش، وأن يعاشرهم ويخالطهم بظاهره، ويباينهم بِسِرّه وخاطره، فلا يخالطهم إلا فيما أمره الله به على ما حَدَّه له من دعائهم إليه سبحانه، ومن موافاتهم في أفراحهم وأحزانهم، فيؤدِّي حقوقَهم، ولا يطالبهم بحقوقه لا تصريحاً ولا تلويحاً، فإن مجانبة البغيض إلا عند الاضطرار مما يخفف من أذاه"[(١)].

ومهمّات العباد محصورة في أمرين: كيفية معاملتهم مع الله، وكيفية معاملتهم مع الخلق، وقد ذكر تعالى من أول هذه السورة إلى الآية التاسعة ما يتعلق بالقسم الأول، ثم أتبعه ابتداءً من هذه الآية بما يتعلق بالقسم الثاني، وهو سبحانه جمَعَ كل ما يُحتاج إليه من هذا الباب في هاتين الكلمتين ﴿هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطا للناس أو مجانبا عنهم، فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيذائهم وإيحاشهم وإلا وقع في الغموم والأحزان، وأما إن جانبَهم وتركَ مخالطتهم فذاك هو الهجر، وقد أمر الله في هذه الفاصلة أن يكون ذلك الهجر جميلا، أي هجراً حسناً خالياً من الجزع والفُحش كما تقدم[(٢)].

٢- أشارت هذه الفاصلة إلى أنه ما ينبغي أن يكون هجر النبيّ ﷺ لهم هجراً تاماً، بل يجب أن يكون هجراً جميلاً، أي حسناً، هجراً خالياً من الذم والإساءة، هجراً يقتصر صاحبُه على حقيقة الهجر، وهو ترْكُ المخالطة فقط فلا يَقْرِنُها بجفاءٍ آخر أو أذًى، ولا يَزيد على هَجْرهم سَبّاً أو انتقاماً، ولا يترك شفقته عليهم، ولا يدعو عليهم بالهلاك، ولا يمتنع عن دعائهم إلى ما فيه رشدهم وصلاحهم؛ ولا يكافئهم بالسيئة السيئة، بل يدفع

(١) ينظر: بحر العلوم (٤٨٧/٣)، نظم الدرر (٢١٠/٨).
(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٦٨٩/٣٠).

السيئة بالحسنة؛ كقوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾[المؤمنون:٩٦]؛ إذ ذاك أدعى للخلق إلى إجابة من يفعل ذلك بهم عند المعاملة. فهو هجر لحقّ الله لا لحظّ النفس، وبالتالي فهو غير منسحبٍ على الدعوة إلى دين الله عز وجل(١).

٣- في هذه الفاصلة تهذيب من الله تعالى لنبيه ولعموم خلقه، وتعليم لهم وإصلاح لأنفسهم التي قد يخطر لها أن تنتصر لنفسها من مجافاة المشركين وعدواتهم وإيذاءهم، فأمره الله أن يُقرن الهجران بالجمال.

٤- ربما تشير هذه الفاصلة ﴿جَمِيلٗا﴾ إلى دوام هذا النوع من الهجر واستمراره(٢)، فهو ليس هجراً مؤقتاً يدوم ليوم أو أيام، ولكن هذا الهجر الذي لا يقارنه فُحش ولا إساءة سيكون ديدناً ودائما، وهذا الدوام والاستمرار مستفاد من بعض معاني هذه المادة، فقد قالوا عن "الحبْلَ الغليظَ" (جُمَل- جُمّل)،(عِظَم مع امتداد)، وعن "الشَّحم الذي يُذَاب ثُمَّ يُجْمَع" (جميل)، وعن إطالة حبس الجيش" (جَمّلَ الجيشَ)(٣).

ففي "الحبْلَ الغليظَ" عِظَمٌ مع امتداد، وفي "الشَّحم الذي أُذيب وجُمِع" (عِظَمٌ مع طول زمني)، والطول الزمني واضح في "إطالة حبس الجيش"، أي مَنْع الأجازات فيه(٤). والله أعلم.

(١) ينظر: ينظر: تأويلات أهل السنة (٢٨٠/١٠)، النكت والعيون (١٢٩/٦)، لطائف الإشارات للقشيري (٦٤٤/٣)، التحرير والتنوير (٢٦٨/٢٩).

(٢) وبعض حروف هذه المادة (جَمَلَ) صوتياً يفيد الاستمرار والامتداد، فـ"صَوْتياً": تعبر الجيم منها عن تجمُّعٍ هَشّ له حدة ما، وتعبر الميم عن تضامٍّ، أو استواءٍ ظاهريّ والتئامه، وتعبر اللام عن نوع من الامتدَاد مع تميز أو استقلال. ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢٧/١، ٣٦، ٣٧، ٣٣٢).

(٣) ينظر: لسان العرب (فصل الجيم)(١٢٣/١١، ١٢٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣٣٦/١).

(٤) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣٣٦/١).

المبحث الثاني

« لطـائــف وأســرار فواصل آيات التهديد والوعيد للمكذّبيـن، وتخفيف القيام عن النبيﷺ والمؤمنين »، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: فواصل آيات التهديد بالنار وما فيها، (وفيه الآيات من ١١- ١٤).

❁ الفاصلة الحادية عشر: (قليلاً) في قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١٧﴾﴾:

أودع الله تعالى بحكمته في هذه الفاصلة كثيراً من اللطائف والأسرار والإشارات، جمعَ الباحثُ بعضاً منها، وبقي بعضها يوفّقُ الله بعض عباده ويُوقِفُهُ عليها، ويظل القرآن الكريم بفواصله وآياته معطاءً وبحراً لا ينفد على مرّ السنين والدهور، ومن هذه اللطائف والإشارات ما يلي:

١- جاء صدر الآية يحمل تهديداً للكافرين المكذبين: ﴿**وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ**﴾ فكان ذلك مظنة واحتمال أن يكون وقوع ذلك التهديد بعد أجل وزمن طويل، فجاءت الفاصلة ﴿**قَلِيلًا**﴾لتقطع آمال هؤلاء المكذبين، وتُفيدَ أنهم لن يُمْهَلوا إلا أياما قليلة، هي بقدر آجالهم في الدنيا[(١)]، وعُمْرُ هؤلاء في الدنيا مهما طال فهو قصير وأيامه قليلة مقارنة بزمن الدنيا، أو لأن الدنيا كلها قليلة يعني إلى قوم القيامة، ففي قوله تعالى: ﴿**وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا**﴾وعيد لهم بسرعة الانتقام منهم، والمراد من القليل هنا: الحياة الدنيا، أو تلك المدة القليلة الباقية إلى يوم بدر، فإن الله أهلكهم في ذلك اليوم[(٢)].

(١) وعلى ما نقله الماورديُّ عن ابن عباس وقتادة أن هذه الآية والتي قبلها مدنيتان فيكون الإمهال القليل إلى غزوة بدر، وقد نُقل عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن هذه الآية نزلت قبل بدر بقليل. ينظر: جامع البيان للطبري (٦٩٠/٢٣)، النكت والعيون (١٢٤/٦).

(٢) ينظر: بحر العلوم (٤٨٧/٣)، مفاتيح الغيب (٦٨٩/٣٠)، البحر المحيط (٣١٦/١٠).

وقد كان جائزاً في غير القرآن أن تحلّ لفظة "يسيراً" محل "قليلاً"[(١)]، فتكون هكذا: "ومهِّلهم يسيراً"، إلا أن هذا لم يكن، وذلك لسِرٍّ هو –والله أعلم– أنّ الحديث هنا عن مدة زمنية سيُمْهَلونها، وعددٍ قليلٍ من الأيام سيُمنَحونه قبل حلول العذاب بهم، فناسب ذلك التعبير بـ"القليل"، دون "اليسير"؛ لأن "القلة" تقتضي نقصان العدد، يقال: قومٌ قليلٌ وقليلون، وفي القرآن ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤]، يريد أن عددهم ينقص عن عِدّة غيرهم، فالقلة نقيض الكثرة، وليس الكثرة إلا زيادة العدد.

أما "اليسير" فهو ما يتيسر تحصيلُه أو طلُبه، ولا يقتضي ما يقتضيه "القليل" من نقصان العدد، فيقال: عدد قليل، ولا يقال: عدد يسير، ولكن يقال: مال يسير؛ لأن جمْعَ مِثْلِه يتيسّر، فإن استُعمِل اليسيرُ في موضع القليل فهو من إجراء اسم الشيء على غيره لاقترابه منه[(٢)].

والتمهيلُ المأمور به في الآية هو التأخير في المدة والزمن تحديداً، لأن التمهيل بمعنى التأخير قد يكون في المكان، ولكنه حينئذ لا يكون تمهيلاً[(٣)]، وبما أنه تأخير في المدة فالمناسب له لفظ (قليل)، وليس لفظ (يسير).

وملمحٌ آخر هنا هو أن "يسيراً" فيه معنى اليُسْر، والآية في معرض التهديد لهؤلاء المكذّبين، فلا يناسب ذلك ذكر اليسر لهم[(٤)].

٢– حملت هذه الفاصلة بشارة عظيمة للنبيّ ﷺ وهي أن بقاء هؤلاء المكذّبين له لن يدوم في الدنيا طويلاً، فبعدَ أن أفْرَحَ الله سولَه ﷺ وسَرَّهُ بوعيدهم الشديد بهذه العبارة

---

(١) في تاج العروس (فصل الياء)(٧/ ٦٣٤) وغيره أن "يسيرا" بمعنى "قليلا".

(٢) ينظر: معجم الفروق اللغوية (ص: ٤٣٤)، إملاء ما منّ به الرحمن (٢٧١/٢). إضافة إلى أن "اليسير" يقابله "العسير"، وقد يقابله "العظيم".

(٣) ينظر: تفسير ابن فورك (٧٢/٣).

(٤) أفدتُّ هذا الملمح من أستاذي الدكتور عرفات محمد عثمان، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر.

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ التي مضمونها أن أخذهم بيده ﷻ، وهو ﷻ يسأل في تأخيره لهم، زاد في البشارة بقوله: (قَلِيلًا) أي من الزمان والإمهال إلى موتهم، أو الإيقاع بهم قبله[١].

وفيها بشارة أخرى له ﷺ بالبقاء بعد أخذهم كما كان، وأنه ليس محتاجاً في أمرهم إلى غير أن يَكِلَ أمرهم إليه سبحانه وتعالى بإلقائهم عن باله ﷻ، وتفريغ ظاهره وباطنه لما هو مأمور به من الله عز وجل من الإقبال على الله سبحانه وتعالى[٢].

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

❁ **الفاصلة الثانية عشر: (وجحيماً) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢﴾.**

في هذه الفاصلة كثير من اللطائف والأسرار والإشارات، وها هي بعضها:

١- كلُّ فواصل السورة السابقة خُتِمت بحرف اللام متبوعاً بالألف المبدلة من التنوين غالباً[٣]، أو غير متبوع بها، أما فاصلة هذه الآية والتي بعدها فخُتِمتا بحرف الميم الذي بعده الألف المبدلة من التنوين.

وحرفُ الميم حرفٌ شفوي تنطبق الشفتان عند النطق به انطباقاً تاماً، وينحبس النفس بسبب هذا الانطباق ولا يمكنه الخروج منهما[٤]، وهذا الحرف صوتياً يُعبِّر عن تضامٍ وامتساك، أو استواءٍ ظاهريٍّ[٥]، وهذا الشعور بالامتساك والانطباق مناسب للجحيم وعذاب النار في هذه الفاصلة، فهي تُمسِكُ بالمكذبين وتنطبق عليهم فلا يجدون لهم

---

(١) ينظر: نظم الدرر (٢١١/٨).

(٢) المصدر السابق. نظم الدرر (٢١١/٨).

(٣) وهذا على العدّ المدني الأول والشامي والكوفي، إذ إنّ كلمة "المزمل" معدودةٌ آية عندهم، بخلاف بقية الأعداد، فجميع الفواصل السابقة مختومة باللام المتبوعة بالألف المبدلة من التنوين؛ لعدم عدّهم كلمة "المزمل".

(٤) وهذا الحرف مجهور، متوسط، مستفل، منفتح، مذلق. ولعل المعنى اللغوي للاستفال - وهو الانخفاض والانحطاط - واضح في هذه الفاصلة (وجحيماً).

(٥) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣٧/١، ١٤٧١/٣).

فِكاكاً، ولا يجدون مخرجاً، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ [البلد:٢٠] ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة:٨]، أي مُطْبَقة.

٢- جاءت هذه الفاصلة مناسبة تماما لسياق الآيات، فالحديث في الآية السابقة عن هؤلاء المكذبين الذين بطروا النعمة وجحدوها، فاستخدموا ما أنعم الله به عليهم من ظلال ونعيم فيما يغضب الله من الكفر وتكذيب رسولهﷺ، والصدّ عن دينه، فكان المقابل لما عاشوا فيه من لذة ونعيم وتبرُّدٍ واستظلال وغضارة عيش، وكثرة مال وولد، أن يعاقَبوا بالجحيم، أي بشدة الحر والعذاب وعدم الراحة، والجحيمُ: النارُ الشديدة التأجج والحرّ والاتّقاد، وكل نار عظيمة في مهواة بعضها فوق بعض[(١)].

٣- لما صُدِّرت هذه الآية بما يمنع الإنسان مما يريد من الانبساط به بالحركات، وهذا المنع شديد على الإنسان، ذكر الله بعد ذلك ما يضادُّ ما هم فيه من النعمة والعز: ﴿أَنكَالًا﴾، جمع نِكْل بالكسر، وهو القيد الثقيل الذي لا يُفك أبداً، إهانة لهم لا خوفاً من فرارهم، جزاء على تقييدهم أنفسهم بالشهوات عن اتباع الداعي، وإيساعهم في المشي في فضاء الأهواء؛ ثم ختم الله الآية بهذه الفاصلة ﴿وَجَحِيمًا﴾، أي ناراً حامية جداً، شديدة الاتِّقاد بما كانوا يتقيدون به من تبريد الشراب، والتنعم برقيق اللباس والثياب، وتكلُّفِ أنواع الراحة، وبذلك يجتمع إحراق الظاهر الذي تُقيدُه ﴿وَجَحِيمًا﴾مع إحراق الباطن الذي يُفيده مطلع الآية ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾[(٢)]. والله أعلم.

٤- جاءت الفاصلة ﴿وَجَحِيمًا﴾ منكّرة والغرض من ذلك تعظيمها وتهويلها[(٣)]؛ ليذهب العقل في تصوّر حجم ذلك الجحيم كل مذهب.

٥- في هذه الآية دلالة على نبوة نبينا ﷺ، وآية رسالته، لأن قوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ﴾، أي: فإن لهم

(١) ينظر: الكشاف (٦٤٠/٤)، نظم الدرر (٣٧١/٥)، لسان العرب (فصل الجيم) (٨٤/١٢)، التحرير والتنوير (٢٧١/٢٩).
(٢) ينظر: نظم الدرر (٢١١/٨).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٧١/٢٩).

لدينا أنكالا وجحيما، وإنما ينكَّلون ويعذَّبون بالجحيم إذا ماتوا على الكفر؛ ففيه إبانة أنهم يموتون وهم كفار، وعلى ذلك ماتوا، وختم أمرهم، ولم يُسلم منهم أحد؛ فيخرج ما أخبر عن غيب كما أخبر، وذلك لا يُعلم إلا بالله – تعالى – فثبت أنه ﷺ لم يخترعه من تلقاء نفسه، بل عُلم بالله تعالى، وعلم الغيب من أعظم آيات رسالته(١).

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

❁ **الفاصلة الثالثة عشر: (أليماً) في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾.**

في هذه الفاصلة كثير من اللطائف والأسرار والإشارات، وها هي بعضها:

١- أصل مادة "أَلَمَ" في اللغة: الوَجَعُ، قال الخليلُ: الأَلَمُ: الوَجَعُ، والأَلِيمُ: المُؤلِمُ المُوجِعُ مِثلُ السَّمِيع بمعنى المُسْمِع، فهو فَعِيلٌ بمعنى مُفْعِلٍ(٢).

وقد جاءت الفاصلة ﴿**أَلِيمًا**﴾ هنا وصْفاً لـ﴿**عَذَابًا**﴾، وكذلك أغلب ما جاء منها في القرآن الكريم هو صفة لـ (عذاب)(٣)، والعذابُ من جنس الوجع ولكنه أشدُّ وأثره أشمل، وقد يقال فى غير القرآن: كان يكفي كلمة ﴿**وَعَذَابًا**﴾ هنا دلالة على المقصود، ولا داعي لذكر ﴿**أَلِيمًا**﴾.

لكنّ مجيء ﴿**أَلِيمًا**﴾في هذه الفاصلة –التي هي في سياق التهديد للمكذّبين والوعيد لهم– في غاية البلاغة حيث دلّ ذلك على شدّة العذاب والوجَع، والمقام يستلزم ذلك، فعند وَصْفِ (العذاب) بأنه أليم يدلُّ ذلك على بلوغه الغاية في الإيجاع، قال ابن منظور: "والعذابُ الأَلِيمُ: الذي يَبْلغ إِيجاعُهُ غايةَ البُلُوغ"(٤).

---

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة (٢٨٣/١٠).

(٢) ينظر: العين، باب اللام والميم (٣٤٧/٨)، مقاييس اللغة (أَلَمَ) (١٢٦/١)، لسان العرب (فصل الألف) (٢٢/١٢).

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: (أ ل م) (٤٦، ٤٧). وقد اختلف في أصل (عذاب)، فقيل: هو من قولهم: عَذَبَ الرّجلُ: إذا ترك المأكل والنّوم، فَالتَّعْذِيبُ حَمْلُ الإنسان أن يُعَذَّبَ، أي: يجوع ويسهر، وقيل: أصله من العَذْب، فَعَذَّبْتُهُ أي: أزلتُ عَذْبَ حياته، على بناء مرّضته وقذيته، وقيل: أصل التَّعْذِيبِ إِكْثارُ الضّرب بِعَذَبَةِ السّوطِ، أي: طرفها، وقيل: هو من قولهم: ماءٌ عَذَبٌ، إذا كان فيه قذىً وكدَر، فيكون عَذَّبْتُهُ: كدّرت عيشه. ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٥٥).

(٤) لسان العرب (فصل الألف) (٢٢/١٢)، وينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢٣٤٠/٤).

والأمرُ كذلك في وصْفِ "العقاب" و"الأخْذِ" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

فالعقابُ إيجاع، ومجيئه مقابل المغفرة يعني شدته؛ لأن المغفرة غاية الإكرام في العفو، فيكون العقاب الأليم غاية الإيجاع في العقوبة. ونسبةُ الأَخْذِ إلى الله العزيز القاهر الذي لا حَدَّ لقدرته تعني شدة ذلك الأخْذِ، ثم صُرِّح بوصفه بالشدة توكيدًا للمعنى[(١)].

٢- في هذه الفاصلة تعميم بعد تخصيص؛ فقد يفهم بعض المخاطبين من صدر الآية والآية التي قبلها ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أن هذا هو كل ما في النار، فهذا تخصيص لأنواع العذاب، فجاءت الكلمة التي قبل الفاصلة ﴿وَعَذَابًا﴾ لتفيد العموم، وأن في النار غيرَ ما ذُكِر من أنواع العذاب، ثم جاءت الفاصلة ﴿أَلِيمًا﴾ لتُفيد أن ذلك العذاب المذكور ليس هو بالعذاب الهيّن، وإنما هو عذابٌ مُؤلمٌ شديد الإيلام، لا يدع لهم عذوبة بشيء من الأشياء أصلاً بما كانوا يصفون به أوقاتهم، وتنكير الفاصلة دلالة على تهويل هذا العذاب، وأنه أعظم أنواع العذاب، فهو عذابٌ مُبْهَمٌ مجهولٌ عند أهل الدنيا، لا يقادَرُ قـدْرُه، ولا يعرف كُنْهه إلا الله عز و جل[(٢)].

٣- مجيء هذه الفاصلة على صيغة المبالغة "فعيل" مع أن الأصل أنها اسم فاعل "مؤلِم" "مُفْعِل"، يشير إلى الديمومة والاستمرار وطول الزمان الذي يعذَّبون فيه، فوصْفُ العذاب بِالأليمِ يدُلُّ على أنه عذابٌ بالغٌ حَدَّ الألَمِ ونهايته كَمّاً وكَيْفاً، فهو شديدُ الإيلامِ، طويلُ الزمان[(٣)].

---

(١) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢٣٤٠/٤). ولا يخفى أن المشار إليه بـ (ذلك) في (وكذلك) في آية سورة "هود" هو ما أوقع الله بمكذّبي رسله الذين سبق أن قصّ أنباءهم في هذه السورة: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، عليهم جميعاً وعلى نبينا الصلاة والسلام. السابق.

(٢) ينظر: نظم الدرر (٢١١/٨)، حاشية الشهاب (٢٦٦/٨)، روح المعاني (١٠٧/٢٩)، تفسير المنار (١٢٤/١). ويرى ابنُ عاشور أنّ "العذاب الأليم" هنا ليس عاماً، وإنما هو مقابل لما في النعمة (أولي النَّعمة) من مَلَاذِّ البشر، فإنَّ الألم ضدُّ اللَّذَّة. ينظر: التحرير والتنوير (٢٧١/٢٩).

(٣) ينظر: تفسير المنار (١٢٤/١).

ثم مجيئها مختومة بحرف الميم الذي وَلِيَهُ الألف المبدلة من التنوين فيه إشارة إلى انطباق النار عليهم ويَأْسِهِم من الخروج منها، أخْذاً من مخرج الميم من الشفتين مع انطباق، وأخْذاً من التضامّ والامتساك الذي يعبر عنه حرف الميم صوتياً، كما تقدمت الإشارة إليه عند الكلام عن الفاصلة ﴿وَجَحِيمًا﴾.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

❁ الفاصلة الرابعة عشر: (مهيلاً) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا[1] ﴿١٤﴾﴾.

نزلت هذه الآيات في ابتداء الدعوة، والمخاطبون بالتهديد في هذا السياق قومٌ لم يدركوا عظمة المعبود ﷻ بعدُ، ولم تستقر في نفوسهم قوةُ الجبّار ﷻ وقدرته المطلقة، ثم هم قوم ماديون لا يعرفون إلا ما تقع عليه حواسُّهم، فربما ظنوا أن ما هُدِّدوا به في الآيتين السابقتين من الأنكال والجحيم والعذابَ الأليم أمر مبالغ فيه، فجاءت هذه الفاصلة لتؤكد لهم خطورة الموقف، وصعوبة الأمر ذلك اليوم، مُصَوِّرةً قدرة الله على كل شيء بأمر يدركونه بحواسّهم.

فالجبالُ وهي من أصلب الأشياء وأشدّها في أنفسها، ستصير -بعد أن كانت حجارةً صلبةً شامخةً طويلة- رملاً، ولكنه ليس رملاً ثابتاً مستقراً، بل رملاً سائلاً متناثرًا، غير متماسكٍ لا قرار له، إذا حُرِّك أسفله، انهال عليه من أعلاه، وإذا وطئه القدم زلَّ من تحتها، تذْرُوه الرياحُ حيث شاءت كسائر الرمال الآن في البوادي، حيث يبلغ هول ذلك اليوم مبلغاً لا تحتمله الجبال مع شدتها وصلابتها، فالإنسان الضعيف المهين أنَّى يقوم لشدته

(١) سبق أن هذه المفردة من الفرائد التي لم ترد في القرآن إلا في هذه السورة، "ومعنى (مَهِيلًا): سَائِلاً قد سِيلَ". والمعنى المحوري لهذه المادة (هَيَلَ): "فراغٌ في أثناء الشيء مع تسيُّبٍ وصورة من التجمع تراكمًا، أو تعلقًا"، كحَلْقة الدارة مفرغة تقريبًا، وكذرّات الهباء في الهواء، وكانهيال الرمل من تسيّبه، أي عدم تماسكه. ينظر: معاني القرآن وإعرابه (٢٤٢/٥)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢٣١٢/٤).

وهوله[(١)]، فمن قدر على ذلك مع الجبال وهي جماد صلب عسير، لا شك أنه قادر على ذلك مع بشر لا تضاهي قوتهم وطاقتهم قوة وصلابة الجبال.

ولما كان الكثيب ربما أطلق مجازاً على ما ارتفع وإن لم يكن ناعماً وصفه الله عز وجل في هذه الفاصلة بكونه ﴿**مَّهِيلًا**﴾ أي: رملاً سائلاً رخواً ليناً منثوراً[(٢)].

ويلحظ المتأملُ أن الله تعالى قد غايَرَ بين فِعْلَيْ هذه الآية، فمع الرَّجْف جِيءَ به مضارعاً ﴿**تَرْجُفُ**﴾، ومع تحوُّل الجبال الصلبة إلى رمالٍ سيّالةٍ غير متماسكة جِيءَ به ماضياً ﴿**وَكَانَتِ**﴾، وذلك للإشارة إلى تحقيق وقوع ما أفادته هذه الفاصلة حتى كأنه وقع في الماضي، فصيرورة الجبال كثيباً مهيلاً أمر عجيب غير معتاد، فقد يستبعده السامعون، وأما رجف الأرض فهو معروف، إلا أن هذا الرجف الموعود به أعظم ما عرف جنسه[(٣)].

المطلب الثاني

فواصل آيات التهديد بذكر خبر فرعون وما حلّ به (وفيه الآيتان: ١٥،١٦).

❁ الفاصلة الخامسة عشر: (رسولاً) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾:

في هذه الفاصلة كثير من اللطائف والأسرار والإشارات، وها هي بعضها:

١- هذه السورة من أول ما نزل، وهذا هو أول موضع يقع فيه التهديد بذكر خبر فرعون، بغرض التعريض بالتهديد أن يُصيبَهم مِثْلُ ما أصاب أمثالَهم ممن كذَّبوا الرسلَ

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة (٢٨٤/١٠)، النكت والعيون (١٣٠/٦)، الفواتح الإلهية (٤٥٥/٢). وتحوّل الجبال إلى رمال منثورة هو على الحقيقة، وقيل: الكلام على التشبيه البليغ. وكون الرمل كثيباً هو باعتبار ما كان عليه قبل النَّثْر والهَيْلِ، فلا تنافي بين كونه مجتمعاً ومهيلاً منثوراً، وليس المراد أنه في قوة ذلك وصدده. ينظر: روح المعاني (١٠٨/٢٩).

(٢) من هالَهُ إذا نثره، أو: هو الذي إذا أخذت منه شيئاً تَبِعك ما بعده. ينظر: نظم الدرر (٢١٢/٨).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٧٢/٢٩).

فهو مَثَلٌ مضروبٌ للمشركين. وإنما ذُكر في هذا الموضع قصة موسى وفرعون على التعيين دون سائر الرسل والأمم؛ لأن أهل مكة ازدروا محمداً ﷺ، واستخفّوا به لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ازدرى موسى لأنه ربّاه وولد فيما بينهم، وهو قوله: ﴿**أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا**﴾ [الشعراء: ١٨]، فلأجل هذا التشابه ذكّرهم الله بقصة فرعون وموسى عليه السلام. وتمثيلُه لهم أمرهم بفرعون وعيدٌ، كأنه يقول: فحالهم من العذاب والعقاب إن كفروا سائرة إلى مثل حال فرعون[(١)].

٢- كان خبرُ موسى عليه السلام وفرعون معروفاً عند أهل مكة ومنتشراً بينهم؛ لأنهم كانوا جيرة اليهود الذين عندهم نبأ موسى عليه السلام وفرعون، فكانوا يخبرونهم بما حلّ بفرعون وقومه بتكذيبهم الرسول ﷺ[(٢)]، فجاءت الفاصلة منكّرة استرعاء لأسماعهم ولفتا لانتباههم، فعند سماعهم هذه الفاصلة وهي منكّرة سيدور في أذهانهم سؤال: هل المرسل إلى فرعون هو موسى كما نعرف من أخبار الأمم السابقة، أم هو رسول آخر غير ما نعرف؟

لأن تنكير ﴿**رَسُولًا**﴾ في هذه الفاصلة يجعله يلتبس بغيره، خاصة أنه لم يسبق له ذِكْر، بخلاف تعريفه كما في قوله تعالى بعدها: ﴿**فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ**﴾، والعربُ إذا قَدَّمَتْ اسماً ثم حَكَتْ عنه ثانياً أَتَوْا به مُعَرَّفاً بأل، أو أَتَوْا بضميرِه لئلا يلتبس بغيره[(٣)].

وفي خِضمّ التفكير في إجابة ذلك السؤال الذي أثارته هذه الفاصلة، تأتي الآية التالية جواباً عن سؤالهم، ثم تَقْرَعُ أسماعَهم بالعقاب الأليم الذي ينتظرهم حال عصيانهم رسولَ الله ﷺ وعدم الإيمان به.

ولو جاءت الفاصلة معرفة لم يكن في ذلك لَفْتٌ لانتباههم؛ لأنها ستكون جاءت بما يعرفون من أخبارهم أن المرسَلَ إلى فرعون هو موسى عليه السلام، فهو المعهود المعلوم.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز (٣٨٩/٥)، مفاتيح الغيب (٦٩١/٣٠)، التحرير والتنوير (٢٧٢/٢٩).
(٢) ينظر: تأويلات أهل السنة (١٠/ ٢٨٥).
(٣) ينظر: الدر المصون (٥٢٦/١٠).

ولَفْتُ انتباههم إلى مصيرهم ووعيدهم -حال عصيانهم النبيﷺ، وقَرْعُ أسماعهم بالعقاب الأليم الذي جاءت به فاصلة الآية التالية ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ - هو المقصود، بدليل أن الكلام تحوّل من بداية هذه الآية وصار الخطاب لهم بعد أن كان للنبي ﷺ قبل ذلك، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا...﴾، "والمناسبةُ لذلك التخَلُّصُ إلى وعيدهم بعد أن أَمَرَهُ بالصبر على ما يقولون وهَجْرِهِمْ هَجْرًا جميلاً"(١).

٣- وعلةٌ أخرى لتنكير ﴿رَسُولًا﴾ في هذه الفاصلة، هي أنَّ الاعتبارَ بالإرسال لا بشخص المُرْسَلِ، إذ التشبيهُ تَعَلَّقَ بالإرسال في قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، وتقديرُهُ: كإرسالِنَا إلى فرعون رسولاً، إضافةً إلى أنهم يعلمون المعْنِيَّ به في هذا الكلام، فمناط التهديد والتنظير ليس شخصَ الرسول ﷺ بل هو صفةُ الإرسال.

وقيل التنكير هنا للتنبيه على أن موسى عليه السلام ليس من قوم فرعون، فلا مانِعَ له منه من حميم ولا شفيع يطاع، ليعلم المخاطبين بذلك من أهل مكة وغيرهم أنّ من كانت له قبيلة تُحامي عنه أولى بالنصرة والاتّباع والتأييد(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ هو تنبيهٌ لقريش وللعرب ولغيرهم، على أن من كان الله معه لا ينبغي أن يُقَاوَى ولو أنه أضعف الخلق، وتنبيهٌ لهم على الاعتبار بحال هذا الطاغية، الذي يزيد عليهم بالملك وكثرة الجنود والأموال(٣).

٥- سبق أن الفواصل القرآنية في السور قد تتماثل، وقد تتقارب، وأن سورة المزمل من القسم الثاني، وهذه الفاصلة ﴿رَسُولًا﴾ على زنة فعول، أما الفاصلتان السابقة واللاحقة عليها ﴿مَّهِيلًا﴾، ﴿وَبِيلًا﴾ فهما على زنة فعيل، وكلا الوزنين (فعول - فعيل) من صيغ المبالغة، والواو الياء يتعاقبان ويتبادلان، وهما شِبْه متّحدينِ؛ لأن كليهما حرف مدّ من أصوات العلة الضيّقة.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧٢/٢٩).
(٢) ينظر: نظم الدرر (٢١٣/٨)، روح المعاني (١٠٨/٢٩)، التحرير والتنوير (٢٧٣/٢٩).
(٣) ينظر: نظم الدرر (٢١٣/٨).

لكن لعل التعبير هنا بـ"فعول" دون "فعيل" إرادة التصريح بكون موسى عليه السلام رسولاً دون كونه نبياً، و"نبيّ" على وزن "فعيل" على القراءتين "نبيّاً – نبيئاً"، والقرآن صرّح في بعض المواضع بكون موسى نبياً(١)، وسياق التعبير بالرسالة يفارق التعبير بالنبوة، وفي اختيار التعبير هنا بـ﴿رَسُولًا﴾ فيه إشارة وتعجيل بكون محمدﷺ رسولا له كتاب وشرع وأحكام كما أن موسى عليه السلام كذلك. والله أعلم.

ولعل من الأسباب أيضاً في استبدال "فعيل" بـ"فعول" هنا: التنوع الصوتي، وتحقيق القيم الجمالية الصوتية، إضافة إلى المعنى الدلالي في الفاصلة نفسها، كما تقدّم ذِكْر ذلك عند الكلام عن الفاصلة السادسة ﴿قِيلًا﴾.

وقد وقع خلاف في المصحف المكي بين عدّ هذا الموضع ﴿رَسُولًا﴾ فاصلة وبين تركه، والصحيح أنه معدود في المصحف المكيّ(٢).

والوجه عند من لم يعدّ هذه الفاصلة آيةً وهو المكيّ في إحدى الروايتين عنه، فإضافة إلى التوقيف، فالمعنى متصل، والارتباط قويٌّ بين هذه الآية والتي بعدها، حيث إن الرسول المعرّف بأل في الآية التالية هو نفسه الرسول غير المحلّى بها في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾، وهو موسى عليه السلام، والنكرةُ إذا كررت نكرة، فالثاني غير الأول، والنكرة إذا أُعِيدَت معرفة فالثاني هو الأول، تقول العرب: كسبت اليوم درهماً، وأنفقت الدرهم، فالثاني هو الأول(٣).

ومن يعُدّها فاصلة فالآية التي بعدها استئناف بيانيّ، وكأن سائلاً سأل:

(١) ينظر مثلاً: مريم: ٥١، البقرة: ١٣٦، النساء: ١٦٣، الأعراف: ١٦٠، يونس: ٨٧، طه: ٧٧.
(٢) ينظر: البيان في عد آي القرآن: ٢٥٧، الفرائد الحسان في عد آي القرآن: ٦٩.
(٣) ينظر: تفسير السمعاني (٦/٢٥١)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣/ ٥٥٨).

ما الذي فعله فرعون عندما أرسل الله تعالى إليه رسولاً؟ فتأتي الآية التالية لتُجيب بأنه عصى ذلك الرسول، فهذه الفاصلة ﴿رَسُولًا﴾ تُنبِئُ عن هذا السؤال الذي يجدر بالعقل أن يسأله، إذ لم يكن قد ذُكر له تفصيل أمر ذلك الطاغية من قبل(١).

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

❁ الفاصلة السادسة عشر: (وبيلاً) في قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾:

قد يطرأ على الذهن سؤال هو:

ما سر اختيار كلمة ﴿وَبِيلًا﴾؟ ولماذا لم تأت الفاصلة "فأخذناه أخْذاً عظيماً"، أو "أخذاً شديداً"، أو "أخْذاً أليماً"، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]؟(٢)

الجواب: لأن ﴿وَبِيلًا﴾ تحمل من المعاني والدلالات هنا في هذا السياق ما لا تحمله أي لفظة مما تقدم، فمادة (وَبَلَ) في اللغة لها أَصْلٌ واحد يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ فِي شَيْءٍ وَتَجَمُّعٍ.

وقد ورد "الوبيل" في اللغة بمعنى: الْمَطَرُ الْكَثِيرُ الضخم الْقَطْرِ [فيه معنى التتابع]، والثقيلُ الغليظُ جِدًّا ، والضرب الشديد ، والْعَصَا الغليظةُ الضخمةُ ، والرَّجلُ الثّقيلُ في أمرٍ يتولَّاهُ لا يُصْلِحُهُ ، والوَبِيلُ مِنَ المَرعَى والطعام هو الْوَخِيمُ، أي الثقيل الَّذِي لَا يُسْتَمْرَأُ، وبمعنى شدّة الطرد ، وخَشَبَةُ الْقَصَّارِ [الغسّال] الَّتِي يَدُقُّ بِهَا الثِّيَابَ. والْحُزْمَةُ مِنَ الْحَطَبِ.

---

(١) أفدتُّ هذا من أ.د. مصطفى إسماعيل، أستاذ أصول اللغة المساعد بكلية اللغة العربية بشبين الكوم.

(٢) وكما في آيتي الأنفال: ٦٨، والشعراء: ١٨٩، وفي آياتٍ أخرى اكتفى الله تعالى بذكر الأخْذ دون وصفه بأي صفة مما تقدم، مثل: هود: ٩٤، فاطر: ٢٦، النحل: ٤٦، ٤٧، غافر: ٢١، النازعات: ٢٥، وغيرها.

ومن نفس المادة: "الوَبَالُ" أي: الفسادُ، اشْتِقَاقُهُ مِنَ الوَبِيل، والوَبالُ فِي الأَصل: الثِّقَل وَالْمَكْرُوهُ، ويقال: اسْتَوْبَلْت الأَرض: إذا لَمْ يسْتَمْرِئْ بِهَا الطعامَ ولم تُوافِقْه في مَطْعَمه وإن كان مُحِبًّا لها(١).

ومجموع ما ذكره المفسرون في تفسير ﴿وَبِيلًا﴾هنا يندرج تحت أربعة معان:

أنها بمعنى: شديداً، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم.

وبمعنى: متتابعاً ، قاله ابن زيد.

وبمعنى: ثقيلاً غليظاً، قاله الزجاج. وبمعنى: مهلكاً(٢).

فالله تعالى هنا يتوعد المكذبين والكافرين من أهل مكة وغيرهم، مخبراً أنه أخذ فرعون بعذاب وبيلٍ، أي شديدٍ، بلغ غاية الشدّة في المكروه، مُهْلِكٍ، ثقيلٍ غليظٍ، متتابع الشرّ، رديء العاقبة، صار هذا العذاب وبالا عليهم، أي أفضى به إلى غاية المكروه.

والوبيل: فعيل صفة مشبهة من وَبُلَ المكانُ، إذا وَخِمَ هواؤه أو مَرْعَى كَلَئِهِ، وهو السُّوءُ وما يُكْرَهُ إذا اشتَدَّ، والوَبِيلُ: القَوِيُّ في السُّوءِ، وهو هنا مستعارلسيىء العاقبة شديد السوء، وأريد به الغرق الذي أصاب فرعون وقومه(٣).

وقد جاءت الفاصلة لتصوّرَ كل هذه المعاني السابقة التي ذكرها اللغويون والمفسرون، وتدلَّ على أن ما عُذِّب به فرعون في الدنيا كان عذاب نكاية وقهر وتمثيل به وعبرة لمن بعده، وأن أَخْذَ الله له كان أَخْذَ قَهْرٍ وغضب، فأُغرق وأُهلِكَ وجميع من معه، لم يدع الله منهم أحداً، وجعل هلاكهم عبرة وآية.

وفي هذه الفاصلة إشارة وإيذان للمخاطبين بأنهم مأخوذون بمثل ذلك وأشد أشد، لو عصوا وكفروا(٤).

(١) ينظر: مقاييس اللغة (وبل) (٨٢/٦)، لسان العرب (فصل الواو) (٧٢٠/١١، ٧٢٢).

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري (٤٧/١٠، ٦٩٣/٢٣)، النكت والعيون (١٣٠/٦)، الكشاف (٦٧٩/١، ٦٤١/٤)، مفاتيح الغيب (٤٣٧/١٢ ، ٦٩١/٣٠).

(٣) وتفسير "الوبيل" هنا بالغرق مرويّ عن الكلبي ومقاتل وقتادة. ينظر: مفاتيح الغيب (٦٩١/٣٠)، التحرير والتنوير (٥٠/٧، ٢٧٤/٢٩).

(٤) ينظر: روح المعاني (٢٩/ ١٠٨).

المطلب الثالث

فواصل آيات مشاهد يوم القيامة، (وفيه الآيات من ١٧- ١٩).

❁ الفاصلة السابعة عشر: (شِيبَاً) في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾.

١- الشِّيبُ في اللغة بَياضُ الشَّعَر، أو جمعُ أَشْيَبَ، واسمٌ لجَبَلٍ معروف، وهو الجِبالُ يَسْقُطُ عَلَيْهَا الثَّلْجُ، فتَشِيبُ بِهِ، أي تصير مُبْيَضَّةٌ منَ الثَّلْجِ، أَو مِنَ الغُبارِ، وهو حِكَايَةُ صَوْتِ مَشافِرِ الإِبِل عِنْدَ الشُّرْبِ. ومادته (شَيَبَ) تدور على الخلط، أو اخْتِلَاطِ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ[(١)].

وعليه فمعنى الفاصلة مع ما قبلها أن ذلك اليوم -وهو يوم القيامة- من شدّة هوله وكربه يشيب الولدان، فتظهر تجاعيد وجوههم، ويَبْيَضُّ شعرهم وهو في أول سواده، وهم في مقتبل أعمارهم، وذلك حين ينادي الله تعالى على آدمعليه السلام أَنْ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، فيقول آدمُ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ فيقول الله عز وجل: «مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ»[(٢)].

فصيرورة الولدان شيباً الذي صوّرته هذه الفاصلة أمر عجيب جداً، إذ قد صوّرت الفاصلة بهذه الكلمة استيلاء الشيب على جميع أجزاء الرأس، بل على جميع أجزاء البدن، وأن الولدان صاروا شيوخاً في الضعف والنحافة وعدم طراوة الوجه، وأنّ شدة ذلك اليوم قد نقلتهم من سن الطفولة إلى سن الشيخوخة، دون أن يمروا فيما بين الحالتين بسن الشباب، وهذه مبالغة العظيمة في وصف اليوم بالشدة[(٣)].

٢- اختلف المفسرون، فقيل: إن جَعْلَ الوالدان شيباً وشيوخاً ذلك اليوم هو على الحقيقة.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (شَيِبَ)(٢٣٢/٣)، لسان العرب (فصل الشين) (٥١٢/١ - ٥١٤).

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٨/٤)، باب: "قصة يأجوج ومأجوج"، برقم: ٣٣٤٨.

(٣) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٩٢).

وقيل ذلك مثَلٌ في الشدة، لا على تحقيق الشيب، فمثّله به؛ لعظم ذلك اليوم، وشدة هوله، يقال في اليوم الشديد: يوم يُشيب نواصي الأطفال، والأصل فيه أن الهموم والأحزان، إذا تفاقمت على الإنسان، أسرع فيه الشيب، فالشيب كناية عن الشدة والمحنة، وليس المراد أن هول ذلك اليوم يجعل الوالدان شيبا حقيقة.

وقيل: المراد وصف ذلك اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب.

وقيل: معنى الفاصلة: أنه لولا أن الله تعالى بعثهم للإبقاء وألا يتغيروا، ولا يتفانوا، وإلا كان هول ذلك اليوم يبلغ مبلغاً يشيب به الولدان(١).

وهذه الفاصلة فيها مبالغةٌ عجيبةٌ، وهي من مُبْتَكَرَاتِ القرآن التي لم يسبق إليها، إذ لم يوجد هذا المعنَى في كلام العرب، حيث إنّ وَصْفَ يوم القيامة بأنه يجعلُ الولدانَ شِيباً وَصْفٌ له باعتبار ما يَقَعُ فيه من الأهوال والأحزان، لأنه شاع أنَّ الهمَّ ممَّا يُسْرِعُ به الشَّيْبُ، فلمّا أُريدَ وَصْفُ هَمِّ ذلك اليوم بالشدَّةِ البالغةِ أقواها أُسنِدَ إليه شِيبُ الولدانُ الذين شَعْرُهُمْ في أوَّلِ سَوَادِهِ(٢).

٣- دلت الفاصلة على أن الدار الآخرة ليست بدارٍ لاستحداث الأسباب، وإنما هي دار وقوع المسببات؛ قال الماتريدي: "فهم إذا لم يستحدثوا الأسباب التي جُعلت لدفع العذاب في الدنيا، لم يمكَّنوا من استحداثها في الآخرة فينتفعوا بها، ولم يكونوا أهلا لوقوع المسببات؛ لما لم يستحدثوا الأسباب في الدنيا، والآخرة ليست بدار محنة وابتلاء ... فلا وجه للابتلاء في الآخرة؛ بل هي دار وقوع المسببات يعني: الثواب والعقاب؛ والذي يدل على هذا قوله؛ ﴿**يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا**﴾، فأخبر أنهم يشيبون لا بسبب المشيب، والمشيب في الدنيا لا يوجد إلا بعد وجود سببه، وهو الكِبَر ليُعلَمَ أن الدار الآخرة ليست بدار استحداث الأسباب؛ فما يستحدثون من الإيمان بالله تعالى لا ينفعهم في ذلك اليوم، ولا يقيهم من عذاب الله تعالى"(٣).

---

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة (٢٨٧/١٠)، الكشاف (٦٤٢/٤)، مفاتيح الغيب (٦٩٢/٣٠).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٧٥/٢٩).

(٣) تأويلات أهل السنة (٢٨٦/١٠) بتصرف يسير.

٤- تحولت الفاصلة هنا من حرف اللام الذي بعده الألف المبدلة من التنوين- وهو غالب فواصل هذه السورة- إلى الباء التي بعده الألف المبدلة من التنوين، وحرف الباء يعبّر صوتياً عن تجمّع تراكميٍّ رِخْوٍ -مع تلاصقٍ ما[١].

فربما كان هذا التجمّع مناسباً للحديث عن يوم القيامة وما فيه من حشر وتجمّعٍ للبشر كلهم في صعيد واحد للحساب، والتلاصق أيضاً يعبّر عن زحام الخلائق ذلك اليوم وتلاصقهم.

وصفات الباء أيضاً فيها ما يتناسب مع ذلك اليوم، وما يتطابق مع ما تعبّر عنه وتدل عليه هذه الفاصلة.

فهذه الفاصلة تدل على شدة ذلك اليوم وهوله وقوته، والشدة من صفات الباء، كما أن ذلك اليوم ليس يوم قرار واستقرار، بل هو يوم **اضطراب وقلق وخوف** من الحساب وتطاير الصحف ووزن الأعمال وغير ذلك من أعمال ذلك اليوم، والقلقلة والاضطراب صفة ثابتة لحرف الباء.

والحديث في هذه الفاصلة وآيتها عن يوم القيامة وهوله، كما أن الحديث في الفاصلة العاشرة ﴿**وَجَحِيمًا**﴾كان يوم القيامة أيضا، وهذا التشابه في المدلول يقابله تشابه في حرف الفاصلة، فالميم من ﴿**جَحِيمًا**﴾، والباء من ﴿**شِيبًا**﴾ كلاهما حرف شفوي يخرج بانطباق الشفتين، وكلاهما حرف مجهور مستفل منفتح مذلق، ويفترقان في أن الميم متوسط، والباء شديد، ولعل ذلك يشير إلى تصاعد وتيرة التهديد وشدته. والله أعلم.

٥- اختلفت المصاحف في عدّ هذه الفاصلة، فهي متروكة في عدّ المدني الأخير، ومعدودة آية في جميع المصاحف الباقية[٢].

والوجه عند من لم يعدّها- إضافة إلى التوقيف- اتصال المعنى، فالحديث قد انتقل في هذه الآية والتي بعدها من التهديد بالأخذ في الدنيا المستفاد من تمثيل حالهم بحال

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٢٦).

(٢) ينظر: البيان في عد آي القرآن (ص: ٢٥٧).

فرعون مع موسى، إلى الوعيد بعقاب أشد، وهو عذاب يوم القيامة بما فيه من صيرورة الولدان شيباً، ومن انفطار السماء من شدة ذلك اليوم، فالمعنى متصل في الآيتين.

وربما يكون وجه من عدّ هذه الكلمة فاصلة أولى؛ لأن عدّها آية يوجب الوقف عليها عند البعض، ويجوّزه عند البعض، هذا الوقف لالتقاط النفس يثير في نفس السامعين سؤالاً أو اسئلة عن حدوث ذلك الشيب للولدان، هل هو حقيقة؟ أم مجاز؟ ولو كان حقيقة فكيف ذلك؟ وهذا يدفع إلى التفكير في قدرة الله الذي يملك ذلك اليوم.

يضاف إلى ما تقدم ورود الخبر بالتقديم والتأخير، قال الواحدي: في الآية تقديم وتأخير، أي فكيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيبا إن كفرتم[1].

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

❁ الفاصلة السادسة عشر: (مفعولاً) في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾.

١- جاءت الفاصلة متناسبةً أتم التناسب مع صدر الآية، فانفطار السماء أمر عظيم، وهو أشدّ هولاً ورعباً مما كُنّيَ عنه بجملة "يجعل الولدان شيباً"، أي السماء على عِظَمها وسُمْكها تنفطر لذلك اليوم، هذا الأمر العظيم والحدث الجلل قد لا يتخيله عقل هؤلاء المخاطبين فيظنونه مستحيلاً، فصَوّرت الفاصلةُ ﴿مَفۡعُولًا﴾ أنه ليس واقعاً وكائناً فحسب بل كأنه وقع بالفعل، فصيغة اسم المفعول التي جاءت عليها الفاصلة من دلالاتها: إفادة المُضِيّ وذلك نحو قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ [الرعد:٢] أي: سُمِّيَ، ونحو قولك: (هو مقتول)، أي: قُتل[2].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٦٩١/٣٠).

(٢) ينظر: معاني الأبنية في العربية: ٥٢ - ٥٣. كما يفيد أيضاً: الدلالة على الثبوت كالصفة المشبهة، نحو: هو مُدَوّر الوجه، مقرون الحاجبين، مفتول الساعدين. ينظر: المفصل في صنعة الإعراب: ١٢٣/٢.

أي إن وعد الله واجب الوقوع، وكائنٌ على كل حال وبكل اعتبار، ومفعولاً أي: سهلاً مفروغاً منه، ففيها تصريح بتحقيق وقوع ذلك اليوم بعد الإنذار به الذي هو مُقْتَضٍ لوقوعه بطريق الكناية، استقصاءً في إبلاغ ذلك إلى علمهم، وفي قطع معذرتهم[(١)].

فالفاصلة أفادت تحقق وقوع ما وعد الله به على خلاف المفسرين في ذلك من أن الوعد هو انفطار السماء، وكون الجبال كثيباً مهيلاً، وجَعْل الولدان شيباً، أو هو إظهار دين الله على الدين كله، أو وعده بما بشّر وأنذر من ثوابه وعقابه[(٢)].

والغالب –والله أعلم– شمول الفاصلة كلّ ما تقدم من خلافات للمفسرين، وذلك أخذاً من تحوّل الفاصلة من (فعيل) كما هو الغالب على فواصل هذه السورة، إلى (مفعول) كما في هذه الفاصلة، أو تحوّلها من (فِعْل) كما هي في الفاصلة التي قبلها ﴿**شِيبًا**﴾إلى (مفعول)، وهذا الشمول مستفاد من حرف الواو في (مفعول) فهذا الحرف صوتياً يعبّر عن اشتمال واحتواء، وذلك أخذًا من "الواو" وهو اسم للبعير الفالج[(٣)].

وسبق أن الفواصل القرآنية في السور قد تتماثل، وقد تتقارب، وأن سورة المزمل من القسم الثاني، وهذه الفاصلة ﴿**مَفْعُولًا**﴾ على زنة مفعول، أما الفاصلتان السابقة واللاحقة عليها ﴿**شِيبًا**﴾، ﴿**سَبِيلًا**﴾ فهما على زنة فِعْل، وفعيل، فلعل تحوّل الفاصلة هنا إلى "مفعول" هنا سببه التنوع الصوتي، وتحقيق القيم الجمالية الصوتية، إضافة إلى المعنى الدلالي في الفاصلة نفسها، كما تقدّم ذِكْر ذلك عند الكلام عن الفاصلة السادسة ﴿**قِيلًا**﴾.

(١) ينظر: نظم الدرر (٢١٤/٨)، التحرير والتنوير (٢٧٥/٢٩، ٢٧٧).

(٢) ينظر: النكت والعيون (١٣١/٦).

(٣) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣٨/١). والبعير الفالج: هو ذو السنامين، ولما كانت الإبل المعتادة المتعارَفة عند العرب ذات سنام واحد، فإن ذا السنامين يُعَدُّ جامعًا ومشتملا على أكثر من غيره. السابق.

❁ **الفاصلة التاسعة عشر: (سبيلاً) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.**

١ – اختيار هذه الفاصلة ﴿سَبِيلًا﴾ والتي هي بمعنى الطريق، أو الطريق الممتد[(١)]، مع سَبْقِها بقوله: ﴿هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ﴾، والتي تشير إلى آيات القرآن، أو إلى السورة، أو إلى ما تقدّم من تهديد المكذّبين، إشارة إلى أنّ السير في هذا الطريق يجب أن يُسْلَك على وفق ما جاءه من التذكرة، وذلك بالاعتصام حال السير بالكتاب والسنة على وفق ما اجتمعت عليه الأمة، ومتى زاغ عن ذلك هلك[(٢)].

وفيها إشارة أيضاً إلى أن هذا الطريق وإن كان فيه طول لكنه طريق عاقبته محمودة، متى اعتصم السالك فيه بما جاء في هذه التذكرة.

٢– استعمال القرآن لهذه الفاصلة فيه إشارة إلى ترغيب الناس للدخول في هذا الدين، والعمل بطاعة الله، فهو دين فيه يسر وسهولة ووضوح وإن بدا في ظاهره أنه تكاليف وأوامر ونواهي، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ لأن كلمة السبيل في أصلها تستعمل للطريق الذي فيه سهولة، وللطريق الواضح[(٣)]، ولذلك نجد عدداً من المفسرين فسّر هذه الفاصلة بأنها سلوك طريق الطاعة تحـديداً، بالعمـل بما يرضي الله، والانتهاء إلى أمره ونهيه، والإقبال على طاعته، وإشغال النفس بعبادته[(٤)].

٣– يستعمل السَّبِيلُ في اللغة لكلّ ما يتوصّل به إلى شيء خيراً كان أو شرّاً[(٥)]؛ لذلك قد تكون هذه الفاصلة دليلاً على عدل الله تعالى، منزّل هذا الكتاب، مُرسِل هذا

(١) ينظر: مقاييس اللغة (سبل) (٣/ ١٢٩، ١٣٠).
(٢) ينظر: نظم الدرر (٢١٤/٨).
(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن (سبل) (٣٩٥)، لسان العرب (فصل السين) (٣١٩/١١).
(٤) جامع البيان (٦٩٧/٢٣ ، ١١٩/٢٤)، تأويلات أهل السنة (٢٨٨/١٠)، النكت والعيون (١٧٤/٦)، الكشاف (٦٤٢/٤)، المحرر الوجيز (٣٩٠/٥).
(٥) ينظر: المفردات في غريب القرآن (سبل) (ص: ٣٩٥).

الرسول ﷺ؛ فمن عدله وحكمته أنه لم يُجبر أحداً على هذا الدين، بل أبان للناس فى هذه السورة طريق الخير والشر، وبيّن عقاب من يكذّب ويكفر ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، وشرح أحوال السعداء مما يتعلق بالدين والطاعة لله تعالى، ومما يتعلق بالمعاملة مع الخلق، وبين ذلك بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، ثم وصف بعد ذلك شدة يوم القيامة، فعند هذا تم البيان بالكلية فختم ذلك الكلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[1].

٤- في هذه الفاصلة تحريض صريح، وتعريض بالترغيب في التذكر، حيث إن التذكرة هي الموعظة، لأنها تَذَكُّرُ الغافل عن سوء العواقب، وهذا تنويهٌ بآيات القرآن، وتجديد للتحريض على التدبر فيه، والتفكر على طريقة التعريض، أي: من كان يريد أن يتخذ إلى ربه سبيلا فقد تهيأ له اتخاذ السبيل إلى الله بهذه التذكرة فلم تبق للمتغافل معذرة[2].

المطلب الرابع

لطائف وأسرار فاصلة آية تخفيف الله على عباده في قيام الليل (وفيه آية واحدة، هي الآية الأخيرة من سورة المزمل)

❁ **الفاصلة الأخيرة: (رحيم) في قوله تعالى:** ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾.

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٩٣).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٧٧/٢٩، ٢٧٨ ، ٣٣٢).

١- رحم الله نبيَّه ﷺ وأمته في هذه الآية فخفّف عنهم قيام الليل، ثم رحمهم لمّا علم سبحانه أن النبي ﷺ وصحابته لن يحصوه فتاب عليهم، ثم رحمهم بأن أمرهم بقراءة ما تيسر من القرآن ولم يأمرهم بقراءة كل ما نزل من القرآن، أو أغلب ما نزل منه، ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، ويقدّموا لأنفسهم خيراً، ولا شك أن المرء لن يقوم بهذه الأوامر على أكمل وجه، وأنه سيقع منه تقصير ولو قليل أو نادر، فأمر بالاستغفار من ذلك لأنه غفور يغفر الزلات والذنوب والهفوات، ورحيم يرحم عباده المؤمنين برحمته وفضله، فناسب ذلك أن تختم هذه الآية بهذه الفاصلة ﴿**رَّحِيمٌ**﴾.

وجملة ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ تعليل للأمر بالاستغفار، أي لأن الله كثير المغفرة شديد الرحمة. والمقصود من هذا التعليل الترغيب والتحريض على الاستغفار بأنه مرجو الإجابة، وفي الإتيان بالوصفين الدالين على المبالغة في الصفة إيماء إلى الوعد بالإجابة(١).

٢- خُتمت أول فاصلة في السورة ﴿**ٱلْمُزَّمِّلُ**﴾ بمقطع مغلق (اللام)، وخُتمت الفاصلة الأخيرة ﴿**رَّحِيمٌ**﴾ بمقطع مغلق أيضاً، وخُتمت فواصل ما بينهما بمقاطع مفتوحة، وكأن هاتين الفاصلتين تلخّصان مدة الرسالة.

ثم إن اللام والميم في هاتين الفاصلتين متشابهتان، فكل منهما حرف مجهور، متوسط، مستفل، منفتح، مذلق، واللام حرف لسانيّ في مخرجه امتداد عُبّر عنه بالانحراف، لذلك بدأت بها الفاصلة الأولى ﴿**ٱلْمُزَّمِّلُ**﴾، إشارة إلى امتداد الدين وعمومه وتعميمه ودخوله كل بيت وحجر ووبر، أما الميم فهي حرف شفوي تنطبق الشفتان انطباقاً تاماً عند النطق به إشارة إلى الانتهاء.

٣- دارت فواصل السورة على هذين الحرفين غالباً، لم تتخلف إلا في فاصلة واحدة هي ﴿**شِيبًا**﴾، وحرف الباء أخو الميم في المخرج والصفات، فهما متجانسان، وكأن الميمَ الحرفَ الصامتَ هذا الذي يسبقه حرف مد هو الياء يشير إلى الاستقرار بعد ارتحال، في إشارة إلى أن محطّ رحل هؤلاء المؤمنين الذين قاموا الليل، وقرؤوا القرآن، وأقاموا الصلاة،

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٩٠).

وآتوا الزكاة، وأقرضوا الله قرضاً حسناً، وقدّموا الخير لأنفسهم، محطُّ رحالهم في دار قرار وأمن واستقرار هي جنة الخلد عند ربهم الرحيم ﷻ.

وكأن ما بين أول فاصلة وخاتمتها حرف اللام من ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، وآخر فاصلة وخاتمتها حرف الميم من ﴿رَّحِيمٌ﴾ تلخيص لحياة الأفراد والأمة والدين، فيبدأ بسعي وامتداد ورحلة وارتحال، وينتهي باستقرار وحط رحال، إما في الجحيم أو في جنات النعيم.

٤- عدد حروف سورة المزمل (٨٣٨) حرفاً[(١)]، تكرر حرف الألف فيها (١٥٤) مرة، يليه حرف اللام (١٠٣) مرة، يليه الواو (٦٩) مرة، يليه حرف الياء (٦٦) مرة، يليه حرف النون (٥٨) مرة، يليه حرف الميم (٥٢) مرة، ثم الباء (٢٢) مرة.

وأكثر فواصل السورة مختومة بحـــرف الألف المبدل من التنوين وقفاً، مسبوقاً باللام في خمس عشرة فاصلة، أو بالميم في فاصلتين، أو بالباء في فاصلة واحدة، وقبل كلٍّ مما سبق إما ياء في الأكثر أو واو في فاصلتين.

وهناك فاصلة واحدة خُتمت باللام ليس بعدها ألف [هي: ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ عند من عدّها]، ومثلها خُتمت بالميم [هي آخر فاصلة: ﴿رَّحِيمٌ﴾]، فتكون الأحرف الثلاثة الأخيرة التي خُتمت بها جميع فواصل السورة هي:

إما: الألف، واللام، والياء، [أغلب الفواصل نحو ﴿قَلِيلًا﴾، ﴿تَرْتِيلًا﴾]، أو: الألف، واللام، والميم [في فاصلتين ﴿وَجَحِيمًا﴾، ﴿أَلِيمًا﴾]، أو: الألف، واللام، والواو [في فاصلتين ﴿رَسُولًا﴾، ﴿مَفْعُولًا﴾]، أو: الألف، والباء، والياء [في فاصلة واحدة ﴿شِيبًا﴾].

ومجموع عدد الحروف الأخيرة الثلاثة التي سبق بيانها هو:

(١٥٤+١٠٣+٦٩+٦٦+٥٢+٢٢=٤٦٦).

أي أن حروف خواتيم الفواصل بلغت أكثر من نصف الحروف التي تكررت في السورة كلها بنسبة مئوية ٥٥,٦%.

(١) ينظر: البيان في عد آي القرآن: ٢٥٧، حسن المدد: ١٤٢، منار الهدى: ٤٠٧، القول الوجيز: ٣٢٨، وهكذا خرجت النتيجة حسب عدّ الحاسوب.

وبالنظر إلى مجموع المعاني الصوتية لهذه الحروف، حيث إن اللام تعبر عن نوع من الامتداد من شيء كالتعلق مع تميز أو استقلال، والميم: تعبر عن تضامٍّ أو استواءٍ ظاهريٍّ لشيء أو على شيء، والواو: تعبِّر عن اشتمال واحتواء، والياء: تعبِّر عن اتصال الممتد شيئًا واحدًا، وعدم تفرقه أو تسيبه، والباء تعبّر عن تجمعٍ تراكميٍّ رخوٍ –مع تلاصقٍ ما[1]، نستنتج أن مجموع هذه الحروف التي تكررت بكثرة في فواصل هذه السورة يفيد اكتمالَ الدين واستواءَه، واحتواءَه واشتمالَه على أصول جميع الشرائع السابقة، وأن أَتْباعه سيكونون لُحمة واحدة، وأنه سيمتد ويدخل كلَّ بيت وحجر ووبر، مع كونه مستقلاً متميزاً، وفي هذا تسكين لفؤاد النبي ﷺ وطمْئنة لقلبه الشريف من خلال فواصل هذه السورة الكريمة.

والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٢٦، ٣٦ - ٣٩).

الخاتمة

(أسأل اللهَ الكريمَ حُسْنها)

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمدﷺ وعلى آله وصحبه، وبعدُ،،،

فبعدَ أن حطّ البحث رَحْلَهُ، تم التوصل من خلاله إلى عدة نتائج، أهمها:

١- لصوت الحرف وصفاته دلالة مقصودة في الفواصل القرآنية، مثال: اللام في ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، والميم في ﴿جَحِيمًا﴾، ﴿أَلِيمًا﴾.

٢- الفواصل القرآنية إما متماثلة وإما متقاربة، وفواصل سورة المزمل من القسم الثاني.

٣- جاءت أغلب فواصل هذه السورة على صيغة "فعيل"، لكن حدث تحوّل من هذه الصيغة إلى صيغة "فعول" في فاصلة واحدة، وإلى صيغة "فِعْل" في فاصلتين، وإلى صيغة "تفعيل" في فاصلتين أيضا، وإلى صيغة "مفعول" في فاصلة واحدة.

٤- نسبة الصيغ الأساسية في فواصل السورة (أي ما جاء على "فعيل") ٥٠%، ونسبة الصيغ التي تم التحوّل إليها لغرض وسرّ ٢٠% ، وهذا على العدّ الكوفي، وكذا على عدّ المدني الأول والشامي، والبصري، والمكيّ في الصحيح عنه.

أما على عدّ المدني الأخير، الذي لا يعُدّ ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿شِيبًا﴾ فاصلتين، فنسبة الصيغ الأساسية في فواصل السورة ٧٢,٢٢% ، ونسبة الصيغ التي تم التحوّل إليها لغرض وسرّ ١٦,٦٦%.

٥- أثبتت دراسة فواصل سورة المزمل أنّ الفاصلةُ القرآنية حققت تجانساً صوتياً دقيقاً على المستوى الدلالي، ومجيء بعض الفواصل صفة لموصوفين في آنٍ تفرُّدٌ وإعجاز.

٦- حقّق التحوّل من صيغة لأخرى انسجاماً صوتياً، وإثراءً دلالياً، وولّد طرداً للرتابة والملل، وحقق للمستمع متعة جمالية للآيات.

٧- تميزت الفاصلة القرآنية في سورة المزمل بظاهرة التكرار؛ حيث تكررت بعض ألفاظ الفاصلة في نهاية أكثر من آية قرآنية، مع تنوع الدلالات في بعضها.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

فهرس أهم المصادر

م	بيانات المصدر

١- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، بمجمع الملك فهد- المدينة المنورة، ط: الأولى، بدون تاريخ.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود: محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.

٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي: عبد الله بن عمر، تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ.

٤- بحر العلوم، لأبي الليث السمرقندي نصر بن محمد، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر – بيروت، بدون تاريخ.

٥- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان: محمد بن يوسف، تحقيق: صدقي جميل، دار الفكر – بيروت، طبعة سنة: ١٤٢٠ هـ.

٦- البيان في عد آي القرآن، للداني: عثمان بن سعيد، تحقق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث – الكويت، ط: الأولى، ١٩٩٤م.

٧- تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق، دار الفكر – بيروت، الطبعة: الأولى،١٤١٤ هـ.

٨- تأويلات أهل السنة، للماتريدي: محمد بن محمد، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠٥ م.

٩- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر- تونس، سنة النشر:١٩٨٤هـ.

١٠- التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جُزَيّ: محمد بن أحمد، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، دار الأرقم – بيروت، ط: الأولى – ١٤١٦ هـ.

١١- جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري: محمد بن جرير، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ٢٠٠٠م.

م	بيانات المصدر

١٢. جامع البيان في تفسير القرآن، للإيجيّ: محمد بن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠٤م.

١٣. حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاوي= عنايةُ القاضي وكفايةُ الراضي على تفسير البيضاوي، للشهاب الخفاجي: أحمد بن محمد، دار صادر – بيروت، بدون تاريخ.

١٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي: شهاب الدين محمود بن عبد الله، دار إحياء التراث العربي– بيروت، بدون تاريخ.

١٥. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، للسهيلي: عبد الرحمن بن عبد الله، تحقيق: عمر السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠٠م.

١٦. زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي عبد الرحمن بن علي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الأولى – ١٤٢٢ هـ.

١٧. شذا العرف في فن الصرف، للحملاوي: أحمد بن محمد ، تحقيق: نصرالله عبد الرحمن، مكتبة الرشد– الرياض، بدون تاريخ.

١٨. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري: إسماعيل بن حماد، تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين – بيروت، ط: الرابعة، ١٩٨٧م.

١٩. صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير، دار طوق النجاة، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٠. غرائب التفسير وعجائب التأويل، للكرماني: محمود بن حمزة، دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت.

٢١. غرائب التفسير وعجائب التأويل، للكرماني: محمود بن حمزة، دار القبلة – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت، بدون تاريخ.

٢٢. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، : للنيسابوري: الحسن بن محمد، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى – ١٤١٦ هـ.

٢٣. الكتاب، لسيبويه: عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة

م بيانات المصدر

الخانجي، القاهرة، ط: الثالثة، ١٩٨٨م.

٢٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري: محمود بن عمر، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٢٥. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثعلبي: أحمد بن إبراهيم، تحقيق: عدد من الباحثين، بإشراف: د. صلاح باعثمان، وآخرين، الناشر: دار التفسير، جدة، ط: الأولى، ٢٠١٥م.

٢٦. لسان العرب، لابن منظور: محمد بن مكرم، دار صادر– بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ.

٢٧. لطائف الإشارات، للقشيريّ: عبد الكريم بن هوازن، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: الثالثة، بدون تاريخ.

٢٨. لوامع البدر في بستان ناظمة الزهر، لعبد الله الأيوبي (رسالة دكتوراه في كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، للباحث: أحمد علي الحريصي، ١٤٣٠هـ).

٢٩. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير: نصر الله بن محمد بن محمد، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ.

٣٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية: عبد الحق بن غالب، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية– بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣١. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، مؤسسة الرسالة– بيروت، ط:الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٢. معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي: الحسين بن مسعود، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٣. معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: إبراهيم بن السري، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، ط: الأولى ١٩٨٨ م.

م	بيانات المصدر

٣٤. المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمد حسن جبل، مكتبة الآداب – القاهرة، ط: الأولى، ٢٠١٠ م.

٣٥. المعجم الوسيط، لمجموعة من العلماء، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.

٣٦. مفاتيح الغيب للفخر الرازي: محمد بن عمر، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٣٧. المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد، تحقيق: صفوان عدنان، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، ط: الأولى – ١٤١٢هـ.

٣٨. مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، طبعة سنة: ١٩٧٩م.

٣٩. النشر في القراءات العشر، لابن الجزري: محمد بن محمد بن أحمد، تقديم: الشيخ علي الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، بدون تاريخ.

٤٠. نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي: إبراهيم بن عمر، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥هـ.

٤١. النكت والعيون، للماوردي: علي بن محمد، تحقيق: السيد عبد المقصود، دار الكتب العلمية – بيروت، بدون تاريخ.

٤٢. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لمكي بن أبي طالب، مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، الناشر: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، ط: الأولى، ٢٠٠٨م.